كتاب

عِلم الأدب

—

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

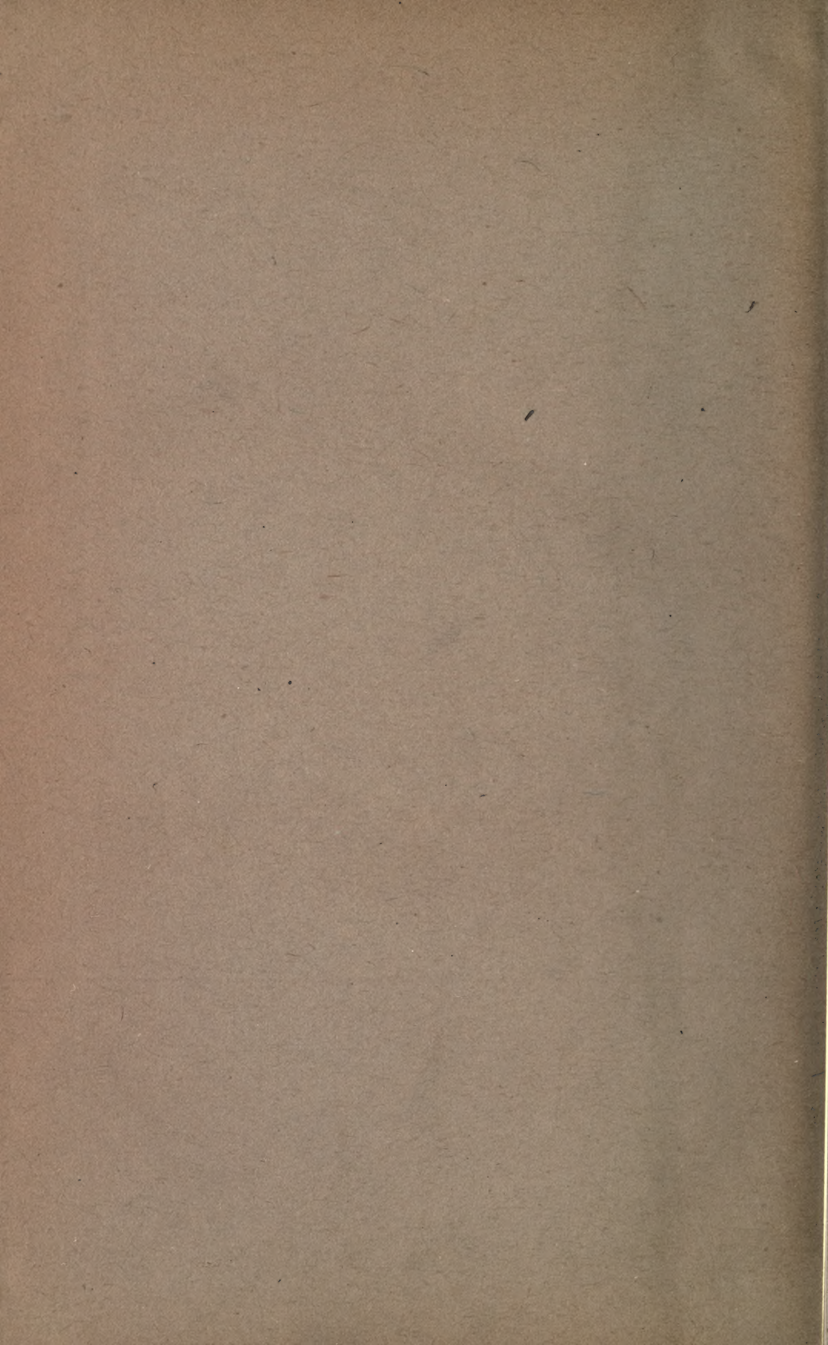
عِلم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩



كتاب

عِلمُ الأدَب

مقالاتٌ

لِمَشاهيرِ العرَب

على الجزء الثاني

من

عِلمِ الأدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩


LIBRARY
NOV 30 1972
UNIVERSITY OF TORONTO

مَقَالَات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

أَلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليَّات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخَطَابَةُ فِي ٱللُّغَةِ كَٱلْخِطَابِ وَهِيَ ٱلْمُكَالَمَةُ اَوِ ٱللَّفْظُ ٱلْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ اِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلْمُوَجَّهِ نَحْوَ ٱلْغَيْرِ لِلْإِفْهَامِ. وَعِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْخَطَابَةُ هِيَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ اَنْ

يستعمل في ذلك من المقالات. ولما ظهر ارسطو في يونان وهذب مباحث المنطق ورتب مسائله وفصوله وجعله اول العلوم الحكمية وفاتحتها جعل الخطابة احد اقسامه الثمانية. وهذه الاقسام تشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وهي كتب المقولات والعبارة والقياس والبرهان واربعة في مادته وهي كتب الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. وذلك ان المطالب التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه وهو تشتمل عليه الكتب الاربعة الاولى. ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهذا تشتمل عليه الكتب الاربعة الاخرى. وفيها تدخل الخطابة. وترجمت كلها في الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة كلها. ثم جاء المتاخرون فغيروا اصطلاح المنطق وحصروا مطالبه في كتب خمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن هي المهم المعتمد في الفن. واما الذي يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف المقاييس الخطابية البلاغية النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمخاصمات في المشاجرات او المدح او الذم او الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمه ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) ٱلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١) . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأُبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة عن المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْأَعْظَامِ وَٱلْأَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْأَجْسَامِ . وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتُ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ . وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ . فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشِّرْكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ ٱعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرِكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِٱلْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ ٱلْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ. وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا ٱلْإِقْنَاعُ فِي ٱلْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي ٱلْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُثْبِتُ ٱلشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي ٱلضِّدِّ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ ٱلْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي ٱلْقُدْرَةِ ٱلَّتِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى ٱلْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِٱلطَّبْعِ وَعَلَى ٱلسَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ ٱسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي ٱلْآخَرِ بَلِ ٱلِٱسْتِعْدَادُ ٱلْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى ٱلسَّوَاءِ. فَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ ٱسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ ٱلْإِقْنَاعِ عَلَى ٱلسَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَٱلْجَدَلِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ ٱسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى ٱلسَّوَاءِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ . اَعْنِي اَنَّهُ لَيس يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْاِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً اِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ . بَلْ عَمَلُهَا هُوَ اَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَاِنْ لَمْ يَقَعْ اِقْنَاعٌ . وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَاِنَّهُ لَيس فِعْلُهَا ٱلْاِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ . بَلْ اِنَّمَا فِعْلُهَا اَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْاِبْرَاءِ . وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي اَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيس مِنْ اَهْلِهَا مِثْلَ اَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيس بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيس بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ اِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْاَقَلِّ . وَكَمَا اَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيس بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ . لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيس اِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْاَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِاِيهَامِهِ اَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ اِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

اِذَا ٱسْتَعْمَلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَـةِ . وَامَّا اِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلِامْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَـا . وَامَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ اَجْلِ أَلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْـلَ ٱلْـكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ اَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَـكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَـاعَةِ قَدْ يَـكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَاِنَّمَـا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِقْنَاعُهُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ اَوِ ٱلِانْفِعَالُ فَاِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ اَنْ يَـكُونَ حُصُولُهُ عَنْ اَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ عَنْ اَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ . فَاِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَوِ ٱلِانْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَـةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ اِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَاِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَـيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَـةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِـهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَـةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ



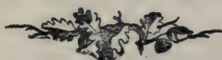
البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ انْحَاءِ ٱلبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا اِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صَنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِاعْتِذَارِ وسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اَتَمَّ وَاَفْضَلَ . وَهٰذَا اَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا اَنْ تُثْبَتَ اَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ ابو ٱلاَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلهِنْدِيِّ ايَّامَ ٱجْتَلَبَ يَحْيَى ٱبْنُ خَالِدٍ اَطِبَّاءَ ٱلهِنْدِ : مَا ٱلبَلَاغَةُ عِنْدَ اهلِ ٱلهِنْدِ. قَالَ بَهْلَةُ : عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا اُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ اُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَاَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ ابو ٱلاَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَاِذَا فِيهَا : اوَّلُ ٱلبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَاْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلاُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلاُمَّةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلاَلفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَاِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ ٱلاَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْاَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلِاسْتِظْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ اَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدَرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُؤْنِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْاَمْرِ عَلَى اِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَاَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ اَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ اَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَاِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَاَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) اَيْ اَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى اكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاَعْمَلَ فِكْرَهُ اَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَاِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَاَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا اَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِٱرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ اَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاغتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف
(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلامِ عَلَى طَبقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبلَغَ وَأَجادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْاخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ. وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا. يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا. وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْاسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْارْتِتَاجِ

وَالإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا اَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ اَوَّلَ مَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَارْتُجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : اِنَّ الَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا الْمَقَامِ مَقَالًا وَانْتُمْ اِلَى اِمَامٍ عَادِلٍ اَحْوَجُ مِنْكُمْ اِلَى اِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ الْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَارْتُجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَاِنْ لَمْ اَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَاِنَّنِي بِسَيْفِي اِذَا جَدَّ الْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ الاَعْتِذَارِ عِنْدَ الاِرْتَاجِ مَا اَخْبَرَنَا اَبُو اَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (اَمَّا بَعْدُ) امْتَنَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : اَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ الْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ الْمُوسِرُ وَيُفَلُّ الْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ الْكَلِيلُ . وَاِنَّمَا الْكَلَامُ بَعْدَ الاِفْحَامِ كَالاِشْرَاقِ بَعْدَ الظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ الْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ الصَّوَابُ وَاِنَّمَا اللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ الاِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) اِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِانْبِسَاطِهِ اِذَا ارْتَجَلَ . اَلَا وَاِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ اُمَرَاءُ الْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ اَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ اَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا احْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا امْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ اَيَّامِنَا اَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ الْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى اَنْطَقَ النَّاسِ قَدْ جَمَعَ الْهُدُوَّ

---

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّمهّلَ وَٱلجزَاَلةَ وَٱلحَلاوَةَ ولَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخيِّرَ ٱلْأَلفَاظِ) فلِأَنَّ مَدارَ ٱلبَلَاغَةِ عَلَى تخَيُّرِ ٱللَّفظِ وَتَخيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضلُ ٱلتَّصرُّفِ فِي كُلِّ طَبقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِأَخْتِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ ٱمْرُؤُ ٱلقَيْسِ أَشْعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ . وَكَذٰلِكَ ٱلكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَربٍ مِنَ ٱلكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : أَمَرَنِي ٱلمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلقَنَادِيلِ فِي ٱلمَسَاجِدِ . فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةً لِلمَسَاجِدِ وَأُنسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ ٱلظُّلَمِ. فَٱنْتَبَهْتُ وَقَدِ ٱنْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبْتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيهِ. وَٱلمُقَدَّمُ فِي صَنعَةِ ٱلكَلَامِ هُوَ ٱلمُسْتَوْلِي عَلَيهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلفَرَزْدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا ٱلفَرَزْدَقُ . وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِي مَرَّةً بِٱلْجَزْلِ وَاُخْرَى بِٱلسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمِ سَيِّدَ ٱلْأُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْأَمَةِ وَلَا ٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ ٱلَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ ٱلرَّأْيِ وَقِلَّةُ ٱلْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ ٱلسُّوقِيَّ وَٱلْمَمْلُوكَ ٱلْاَعْجَمِيَّ بِاَلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ ٱلسَّرَاةِ. كَاَبِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ لِقَصَبِ ٱلْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ظُبَاتِ ٱلْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ ٱلْمَسْحَ وَٱسْحَلِ ٱلرَّشْحَ وَخَفِّفِ ٱلْوَطْءَ وَعَجِّلِ ٱلنَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ ٱلْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِٱلْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو ٱلْمَغَازِلِ ٱلضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِٱلْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِٱلْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا ٱلنِّصَاحِ وَذَاتِ ٱلسَّمِّ ٱلطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ ٱلْخَيْفَانَةَ ٱلْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا ٱلْحَاسِنُ ٱلْمُسَرْهَفُ (١) كَانَ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَالْخُلَّبِ ٱلْأَجْرَدِ (١) . فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ اُطْلُبْهَا فِي بَرِّ لَخَّرَ (٢) . فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَمَا اعْلَمُ رَطَانَتَكَ . فَقَالَ : لَعَنَ ٱللهُ ابْغَضَنَا لَفْظاً وَاخْطَأَنَا مَنْطِقاً

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ ابُو هِلَالٍ : لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْأَلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ اثْبَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ . فَأَمَّا مَنْ ارَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ اَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلْاسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ : أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ : عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ . وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ اَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ . قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلّب الاخرز (٢) ويروى : في تمر بلخ
(٣) وفي رواية : ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللّٰهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللّٰهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

---

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرِّد عنّا

تَعَوَّدَ حذف فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلِٱسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي اَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ اَوْ اَخَذَ مِنْ اَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ اَطْرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلْعَامِّيَّ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلْيَةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ اَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِلُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (اَيْشْ كَانَ نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَّتِهِ. فَيَنْبَغِي اَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَاَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ الخ) هُوَ اَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ اَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: اَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: اَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئَ وَلَا تُبْطِئَ). فَاَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِاَنَّ فِي ٱلَّذِي اَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَامَّا اِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْاَلفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلفَاظِ) فَهُوَ اَنْ يُرِيدَ ٱلْاِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْاَلفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ أُخَرُ فَلَا يَعْرِفَ ٱلسَّامِعُ اَيَّهَا اَرَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامَ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ اَعْلَمُ اَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ   يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلِاشْتِرَاكِ فِي هٰذَا اَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى اَيِّ شَيْءٍ اَشَارَ مِنْ اَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ : (فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ) أَاَرَادَ اَنْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ اَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ اَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اَوْ يَدْفَعَ اِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ اَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاَحْوَجَ اِلَى اَنْ يَسْاَلَهُ عَمَّا اَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَاَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ). لِاَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَاَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِحُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْاَزْدِيِّ

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ   لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا اَرَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) أَخَيْرًا اَرَادَ اَمْ شَرًّا اِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُودِعَ ٱلثَّرَى ... بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ إِذَا أَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ إِقْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ إِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ. عَلَى أَنَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ: إِنَّ أَكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ أَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا. وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ ٱلْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْإِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

وَخَبْنُ مَا يَخْبَنُ مِنْ آخِرٍ ... مِنْهُ وَلِلطَّابِنِ أَمْهَارُ (١)

ٱلْأَمْهَارُ هَا هُنَا جَمْعُ مُهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا. وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْتَمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ. وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى: لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْأَلْمَاسِ. أَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَأَصَابَ ٱلسَّجْعَ وَأَخْطَأَ ٱلْمَعْنَى. وَأَمَّا مَا بِنِيَّتِهِمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلِٱشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَخٍ لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ:

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس:

وخبز ما يخبز من بعده ... منهُ وللطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اَخلَاقَكَ فَوَجَدتُّها مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اَخْلَاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ ٱلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْعَالَمِينَ .وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا اُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَاَسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اَذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَاَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ ٱعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ . فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَٱنْقَطَعَتْ اَسْبَابُ اَمَلِي مِنْكَ وَرَاَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّدِ بِٱلدَّوَاءِ اِلَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ اِلَّا ٱتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَٱحْتَسَبْتُ اَيَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِاسْمُ طِبْقًا) اَيْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَٱلطَّبَقِ عَلَى ٱلْاِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ :(وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْاَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِاسْمُ طِبْقًا . وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ :

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ   بِٱلْغَيْبِ اَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى اَنْ لَوْ لَهُ   يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ . وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ .

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ
فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ اِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ اِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

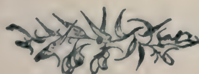
وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ دَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَوَّلُ مُفْتَقِرًا اِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ مُحْتَاجًا اِلَى ٱلْاَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ اَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى اِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْاَعْيَادِ بِاَجْزَلِ ٱلْاَقْسَامِ وَاَوْفَرِ ٱلْاَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْاَنْصَافَ وَٱلْاَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَاِدْخَالُكَ اِيَّاهُ فِي اَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ اِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ



البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْاِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَاِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ اَنَّهُمْ اَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: اِنَّهُ شَرِبَ اَوْ قَتَلَ. فَاَمَّا اِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا اَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ اَوْ وَهِمُوا فِيهِ اِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا اَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي اَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ دُونَ اَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ اَخْطَاَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا اَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا اِلَى اَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْاَنَاةَ اِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلِانْفِعَالِ فَقَطْ. وَاَمَّا (ٱلصَّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصَّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِاَنْ يَكْسَبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَاِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَاِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ اَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ اِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ اَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا اُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا اَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَاَمَّا (ٱلصَّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ اَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَاِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ اِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ اَنْ يُقْنِعَ ٱلْاِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ اِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ: (اَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ مَعْلُومٌ اَنَّ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلْمَنْسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلِاعْتِرَافُ مِنَ ٱلْمُخَاطِبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِتَثْبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَاَيْنَا اَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلْاَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصْلُ ٱلتَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّصْدِيقِ اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلْبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ ٱلْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي اَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلْتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

يَعْرِفَ ٱلْقِيَاسَ ٱلَّذِي هُوَ جِنْسُهُ . وَٱلَّذِي يَزِيدُ عَلَى هٰذَا فَيَعْلَمُ لِمَاذَا تُعْمَلُ ٱلضَّمَائِرُ وَٱلْفُصُولُ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلضَّمِيرِ وَبَيْنَ سَائِرِ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْأُخَرِ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَيْنِكَ . وَٱلْمَعْرِفَةُ بِهٰذَا كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ . فَإِنَّ لِلْقُوَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا أَعْنِي لِلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِعَيْنِهَا أَنْ تَعْرِفَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ حَقٌّ وَٱلَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بِٱلْحَقِّ وَٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِّ وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّاسَ مُتَهَيِّئُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ كُلَّ ٱلتَّهْيِئَةِ نَحْوَ ٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْحَقِّ نَفْسِهِ . وَهُمْ أَكْثَرُ ذٰلِكَ يَؤُمُّونَهُ وَيَفْعَلُونَ عَنْهُ . وَٱلْمَحْمُودَاتُ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْهَا ٱلضَّمَائِرُ شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِّ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا نَائِبَةٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنَابَ ٱلْحَقِّ . وَٱلشَّبِيهُ بِٱلْحَقِّ قَدْ يَدْخُلُ فِي عِلْمِ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَنْطِقِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَقَدِ ٱسْتَبَانَ أَنَّ قُصُورَ هٰؤُلَاءِ فِيمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ ٱلْخَطَابَةِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِٱلْمَنْطِقِ وَأَنَّ سَائِرَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ٱلْخَطَابَةِ وَمَنْ يَسْتَعْمِلُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَقَدَّمُوا فَيَعْرِفُوا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي هِيَ عَمُودُ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ فِي أَشْيَاءَ تَجْرِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ مَجْرَى ٱلتَّزْيِينِ وَٱلتَّنْمِيقِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِ ٱلشَّيْءِ وَصَفْحَتِهِ لَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مِنْهَا مَنْزِلَةَ مَا بِهِ قِوَامُ ٱلشَّيْءِ وَوُجُودُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُظَنُّ بِمَا فَعَلُوا مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِقْنَاعِيَّةِ وَجَرَوْا فِي ذٰلِكَ عَلَى طَرِيقِ ٱلصَّوَابِ وَٱلْعَدْلِ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوَصِّلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمُلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال: (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقًا بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لـهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالَم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

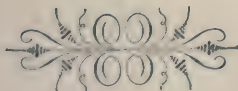
(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَاتِّيًا لِاَنْ يُسْتَعْمَلُ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ اَقَلَّ عُمُومًا كَانَ اَحْرَى اَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ اَعْنِي ٱلْاِرَادِيَّةَ. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاَقَلِّ وَٱلْاَكْثَرِ (٭) فَاِنَّهَا لَيْسَ

(٭) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصّل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضاً مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انّيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمّيًّا

تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخَلْقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطْبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطْبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ ذٰلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِاَلْجُمْلَةِ فَاَلْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاَللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِاَلنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَاَلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِاَلْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِاَلْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِاَلْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِاَلضَّاحِكِ اَوْ بِاَلْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمَيُّزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ : (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسبب لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله . (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة . (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ إِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا. اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا. وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ. وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَإِلَّا فَلَا. وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا.

اي لو لا كونهُ مساوياً (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقاً او من وجهٍ (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضاً. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص اماً مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق مما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولايلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيهِ) اي في المعرِّف (من مميز) مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًّا سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واماً رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) اماً حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرَض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واماً رسم ناقص بالخاصَّة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تاماً وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزماً لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفُ (بالمثال) سواء كان جزئيًّا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسماً ناقصاً) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيماً على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفاً حقيقياً يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفاً بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسمياً. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسماً اسمياً. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفاً بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسماً...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شِرْكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصِّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيرهِ. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنَ

ٱلْأَنواعِ فيجعلهُ جنساً تعظيماً لهُ وتفخيماً لِأَمرهِ بعد ان يحصر جميع اقسامهِ. وٱلْمُرادُ عِندهم بِٱلنَّوعِ أعمُّ مِنْ انْ يكونَ صادقًا على مُتعدّدٍ ذِهناً كما هُوَ ٱلنَّوعُ ٱلْمعهودُ عِنْدَ عُلماءِ ٱلْمنطِقِ اوْ لا يَصدِقُ إلّا على فردٍ واحدٍ كَٱلْجُزْئِيِّ ٱلْمعروفِ عِندهُمْ. وٱلْمُرادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجِنسُ وَهُوَ ما صدقَ على مُتعدّدٍ ٱخْتلفتْ حقيقةُ افرادِهِ. وَمِثالُ ذٰلكَ عِنْدَهُمْ كقولِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَقصي وَرُؤْيتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنيا وَأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قصدَ تعظيمَ مَمْدُوحِهِ فجعلَ منزلهُ ٱلَّذي هُوَ جُزْئِيٌّ كلّيًا وَهُوَ ٱلدُّنيا وجعلَ ذاتهُ ٱلَّتي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةً وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَأَمَّا حصرُ اقسامِ ٱلْجُزْئِيِّ فلِأَنَّ ٱلْعالَمَ عِبارةٌ عن حيوانٍ وَنَباتٍ وجمادٍ. وٱلْمنزِلُ شامِلٌ لها

البحث السادس

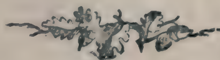
في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلْجِنسُ فِي ٱللُّغةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شيءٍ وَهُوَ أعمُّ مِنَ ٱلنَّوعِ. يُقالُ: ٱلْإِنسانُ نوعٌ وَٱلْحيوانُ جِنسٌ. وَيُرادُ بِهِ عِندَ اهلِ ٱلْعربيَّةِ ٱلْماهِيَّةُ. وَكُلُّ ما دلَّ على شيءٍ وَعلى كُلِّ ما أشبهَهُ وَبِٱلنَّظرِ إلى

هٰذَا قِيلَ اَسمَ ٱلجِنسِ اَسمٌ مَوضُوعٌ لِلمَاهِيَّةِ مِنْ حَيثُ هِيَ . وَٱلجِنسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُختَلِفِينَ بِٱلاَغرَاضِ دُونَ ٱلحَقَائِقِ . وَقِيلَ اَيضًا : ٱلجِنسُ هُوَ ٱلمَقُولُ عَلَى اَفرَادٍ مُختَلِفَةٍ مِنْ حَيثُ ٱلمَقَاصِدِ وَٱلاَحكَامِ . وَٱلنَّوعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى اَفرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيثُ ٱلمَقَاصِدِ وَٱلاَحكَامِ مُختَلِفِينَ بِٱلعَدَدِ فَقَط كَٱلاِنسَانِ فَاِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيدٍ وَعَمرٍو وَبَكرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا اُطلِقَ ٱلجِنسُ عَلَى ٱلاَمرِ ٱلعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنسًا عِندَ ٱلفَلَاسِفَةِ اَو نَوعًا . كَٱلحُرِّ وَٱلعَبدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوعَانِ يَندَرِجَانِ فِي حُكمٍ وَاحِدٍ وَيَشتَرِكَانِ فِي ٱلاِنسَانِيَّةِ . ثُمَّ اِنَّ ٱلجِنسَ يُقسَمُ اِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلجَوَابُ عَنِ ٱلمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلجِنسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلجِنسَ فَقَط كَٱلحَيَوَانِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلاِنسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلحَيَوَانِيَّةِ كَٱلفَرَسِ وَٱلغَنَمِ وَٱلبَقَرِ وَنَحوِهَا . وَاِنْ كَانَ ٱلجَوَابُ عَنهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلجِنسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلجَوَابُ هُوَ غَيرُهُ كَٱلجِسمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلاِنسَانِ فَاِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلاِنسَانِ وَعَنْ بَعضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلاَجنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلاَنوَاعُ مُتَنَازِلَةً اِلَى اَنْ تَبلُغَ اِلَى جِنسٍ لَيسَ فَوقَهُ جِنسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلجِنسُ ٱلعَالِي وَاِلَى نَوعٍ لَيسَ تَحتَهُ نَوعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلجِنسُ ٱلمُفرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلْإِمْكَانِ وَٱلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحْتَاجُ اِلَيهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلمَادَّةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِٱعتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاسْطَقِسٌ اِذْ اِلَيهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلمَاهِيَّةِ كَمَا انهُمَا عِلَّتَانِ لِلوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلجُلُوسِ عَلَيهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعلِ ٱلمُوجِبِ غَايَةً اَيضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسمَّى جَمِيعُ مَا يُحتَاجُ إِلَيهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلمُرَكَّبِ ... وَٱلفَرقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ . أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيبُوسَةِ ٱلحَطَبِ لِلْإِحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلحَطَبِ بِٱلإِحْرَاقِ إِلَّا بَعدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوَّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اعْلَمْ أَنَّ لِلكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغفَلَهَا ٱلمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَونَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا . وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ . عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا . وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ : إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذٰلِكَ . قَالَ : يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرَءًا لِأَمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ

فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ

فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا . فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا . (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ . وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ :

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَن يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

أَبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عُقْبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرُ كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي
أَنْتَ رَبِّي وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدِكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ. وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا أَعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لُوْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ. وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَلِيعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ



البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمسُ خِصَالٍ: (إِحدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱسْتَرْشِدُوا ٱلعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ: ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يُحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ: ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ:

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلٰكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذٰلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمْحِضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ ... وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ ... بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا ... تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ ... فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ ... فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ:

وَقَدْ يُحْكِمُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ٱلِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْاَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْانسانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْاُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْاِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى اِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ اِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَتَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ اِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْاَذَى. وَاِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ اِلَى ٱلدُّخُولِ فِي اَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْاَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْاَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ اِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ اِلَّا اِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنسَانِيَّةِ. وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِانْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اوِ ٱلتَّلُّ ٱلْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْأَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ ٱلْإِنسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْأَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي. فَتَشْمُلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْأَفْرَاحِ. وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْأَقْدَاحِ. فَيَبْسِمُ مَدَى ٱلْأَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ. اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ. وَمُحْتَفًا بِأَوْهَامِ ٱلْأَعْمَالِ. فَلَا يَنْظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ. وَهٰكَذَا يَهِيطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ. وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ. اِلَى انْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ. وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) امَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْأَمَلِ. حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْأَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. مُنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَاهْوَائِهِ. مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ. وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِّ. وَتَشِبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ. وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْأَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ وَٱلْأَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْأَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اوجِ ٱلْأَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبَطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِدْثَانِ. وَمُسْقَطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنْثُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَصْفَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَمْرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدُّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنُهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَيَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِٱلْفَلْسِ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَلْسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلَّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ . فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ . ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ . امَّا اِذَا الْتَفَتَ اِلَى الْاَمَامِ . وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْاَيَّامِ . حَنَّ اِلَى الْوُجُودِ . وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ . وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ . وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ . وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ . حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ . وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَاُمْنِيَّةٍ . فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ . وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ . حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا . وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الْخَطِيبَ اِذَا مَا اَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي اُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ اَحْوَالِهِمْ . قَالَ اَفْلَاطُونُ : لِكُلِّ اَمْرٍ حَقِيقَةٌ . وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ . وَلِكُلِّ اِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ . فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْاُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه) . وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْاِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ . عَلَى اَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ ومَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. إِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدَّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَعْظَمَ مَثَلًا وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمَّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ. إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ... وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ

النَّاسِ قُوَّتَيْنِ اِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَالْاُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ الْقُوَّةِ الْبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ اللَّذَاتِ الْعَاجِلَةِ الشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ اَنْوَاعِ الْغِذَاءِ وَنِزَاعُ الْقُوَّةِ النُّطْقِيَّةِ نَحْوَ الْاُمُورِ الْمَحْمُودَةِ الْعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرْشِدُ الْجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ الْفَضَائِلِ اَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ اَصْلَحُ لَهُمْ وَاَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَاِنَّهُ مَتَى مَا اَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ الطَّرَفِ الْآخَرِ الَّذِي هُوَ الْبَهِيمِيُّ. وَاِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى اِذَا اَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ النَّصَبِ اَضْعَافَ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ اَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ الْخَطِيبَ لَا يَنْجُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ اَنْ يَلْقَى الْجُمْهُورَ مَائِلًا اِلَى اَمْرٍ مَحْمُودٍ اَوْ اَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْاَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ اَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ السَّامِعِينَ اِلَى ذٰلِكَ الْاَمْرِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَلْقَاهُ اِنْ وَجَدَ السَّبِيلَ اِلَى الدَّفْعِ اِلَيْهِ وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبَ عَلَيْهِمِ التَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ الْفُرْصَةَ لِذٰلِكَ. وَاِذَا يَلْقَاهُ الْاَمْرُ الْمَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَاِنْ لَمْ يَجِدْ اِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى الْاِعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارٌّ مِثْلُهَا. فَقَدْ ظَهَرَ اَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ جُلِّهَا وَدِقِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا مَوْضِعَ الرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَاِرْشَادِ الْجُمْهُورِ. وَاِذَا تَيَقَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ الْاَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ اَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَاِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ الْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ اِنَّهُ

يَجِبُ عَلَيْهِ اَنْ يَكُونَ مُلَازِماً لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاظِباً عَلَى مَا فُوِّضَ اِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى ٱلْمَلَالَ وَخُصُوصاً مِنَ ٱلْمُلُوكِ. وَاَنْ يَكُونَ مُجْتَهِداً فِي طَلَبِ وُجُوهٍ حِسَانٍ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ اِذْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْعَالَمِ اِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ اَحَدُهُمَا جَمِيلٌ وَٱلْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ لِكُلِّ اَمْرٍ مِنْ اُمُورِهِ وَجْهاً جَمِيلًا يَصْرِفُهُ اِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفُ لِذِكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ فَاِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْمُفَوَّضَ اِلَيْهِ تَدْبِيرُ ذٰلِكَ ٱلرَّئِيسِ كَٱلسَّيْلِ ٱلْمُنْحَدِرِ مِنَ ٱلرَّبْوَةِ اِنْ اَرَادَ ٱلْمَرْءُ اَنْ يُوَاجِهَهُ اَهْلَكَ نَفْسَهُ وَاَتَى عَلَيْهِ ٱلسَّيْلُ فَاَغْرَقَهُ. وَاِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبَيْهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ اِلَى ٱلنَّاحِيَةِ بِاَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ مِقْدَاراً مِنَ ٱلسُّدَدِ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ لَا يَنْشَبُ اَنْ يَصْرِفَهُ اِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذٰلِكَ اَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَ ٱلرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ اَمْرٍ يُرِيدُ اَن يُجْرَى مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارٍ نَحْوَهُ وَلَا يُوَاجِهُهُ وَاِنْ كَانَ فِي غَايَةِ ٱلْاِنْبِسَاطِ مَعَهُ وَلَا يُقِرَّ بِمَا يُلْقِي مِنْهُ اِلَى ٱلنَّاسِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ فَسِيَّانِ بَيْنَ ٱلْخَبَرِ وَٱلْاِقْرَارِ.. وَيَنْبَغِي اَنْ يَتَلَطَّفَ كُلَّ ٱلتَّلَطُّفِ فِي مِثْلِ ٱلْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ ٱلرُّؤَسَاءِ بِاَنْ لَا يُلِحَّ فِي ٱلسُّؤَالِ وَلَا يُدِيمَهُ وَلَا يُظْهِرَ ٱلطَّمَعَ وَٱلشَّرَهَ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدَ فِي اَنْ يَطْلُبَ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ اَسْبَابَ ٱلْمَنَافِعِ لَا ٱلْمَنَافِعَ اَنْفُسَهَا.. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اَنْ يُظْهِرَ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ اَنَّهُ اِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا لِنَفْسِهِ وَاَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ ٱلصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْبِيهِ وَيَذْكُرُ لَهُ فِي ٱلْوَقْتِ بَعْدَ ٱلْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَٱلْحِيَلِ ٱللَّطِيفَةِ

بَعض مَا يَعرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ ٱلْحَالُ بِمُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ ٱلِٱسْتِخْدَامَ وَٱلِٱسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ ٱلْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ ٱلنَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِٱسْتِعْمَالِهَا ٱلْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا ٱلْمَرْءُ مَعَ ٱلْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ ٱلْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَٱلْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلْأَصْفِيَاءُ ٱلْمُخْلِصُونَ فِي ٱلصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِيءُ ٱلْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ ٱلْجُهْدِ فَإِنَّ ٱلصَّدِيقَ زَيْنُ ٱلْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ أَيِ ٱلْأَصْدِقَاءُ فِي ٱلظَّوَاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱسْتِمَالَتِهِمْ وَٱلصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ ٱلظَّاهِرِ

دُونَ اَخْذِهِمْ بِٱلْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِٱلتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مَهْمَا عُمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ ٱلْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا ٱلْاَكْفَاءُ ٱلْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ ٱلنُّصَحَاءُ ٱلَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِٱلنَّصِيحَةِ فَٱلْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَاَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ ٱلتَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ ٱلصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ ٱلْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ ٱلصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى ٱلْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ ٱلنَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ ٱلْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِٱلْخَيْرِ وَحُسْنِ ٱلنِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ ٱلسُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى ٱلْخَطِيبِ اَنْ لَا يُوَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلسَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْاَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِٱلْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ ٱلْاِكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ ٱلْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُؤَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ .. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكرياً بن عدي)

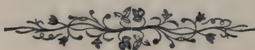
(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخُلقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفعَلُ ٱلإِنسَانُ أَفعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلْقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّدِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلْقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِٱحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِٱفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِٱجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ اَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ اِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ اَنْ تُرْشَدَ اِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ اِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ اَو نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ اِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْاِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ اِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ اِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ اِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَاَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَاِنَّهَا وَاِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ اَنْ يَصِيرُوا اِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا اِلَيْهَا بِٱلِاعْتِيَادِ وَٱلتَّآلُفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْاَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْاَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَّا ٱلاَخْلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ مِنْهَا (ٱلْعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ ٱلْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطْ وَٱجْتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصْدِ ٱلِٱعْتِدَالِ . وَاَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحَبِّ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَى ٱلِٱرْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوْقَاتِ ٱلْحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى ٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي لَا يَحْتَاجُ اِلَى اَكْثَرَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا اَيْضًا ٱلْقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلْعَيْشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَتَرْكُ ٱلْحِرْصِ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ وَطَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَاِيثَارِهِ وَٱلْمَيْلِ اِلَيْهِ وَقَهْرِ ٱلنَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلتَّقَنُّعِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ اَوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَاَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ . فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ اِذْ لَا اُبَّهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِانْقِبَاضُ عَنْ اَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِيشَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَاكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفِلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْاِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ اَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ اَضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْاَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَاِنَّ اَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ اَسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِانْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْخَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ثَلْمِ جَاهٍ اَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّهُمْ اَقْدَرُ عَلَى ٱلِانْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَاِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَاِنَّهُ وَاِنْ اَمْسَكَ عَنْهُ فَاِنَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلْاِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَبَثِ وَكَثْرَةِ ٱلْاِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِصْغَاءُ عِنْدَ ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْاُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ اَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِانْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلْوُدُّ) وَهُوَ ٱلْمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلْوَقَارِ وَٱلْاُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلْخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلْجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلْوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاه الّا انّ انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشدّ لانّه متى عرف منهم قلّة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتمّ اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عمّا يتصرّف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه وردّ ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السرّ) وهذا الخلق مركّب من الوقار واداء الامانة. فانّ اظهار السرّ من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلّم بالفضول والفضولي ناقص الشرف. فكما انّ من استودع مالًا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سرًّا فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضًا. وكتمان السرّ محمود من جميع الناس وخاصّة من يصحب السلطان واولياء الامور فانّ اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدّي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤّس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنّب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرّز من الاعجاب والكبر. ولا يحمد التواضع الّا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم وامّا ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لانّ الضعة هي محلّهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ.وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغَضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً.وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِٱغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ إِلَى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ أَيِ ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخِلَّةَ. وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ أَخْطَارًا وَأَحْوَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذًا مِنْ أَخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

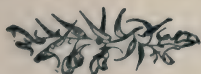
(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَٱلِاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا احْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْحِيلَةَ وَمَا اقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ . فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ اعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَاوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَامَّا ٱلاخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَانَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِانْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْأَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلِاكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلرَّدِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّحَرُّكُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلْاِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنفَعَةٌ .وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ اَقْبَحُ وَاَضَرُّ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ بِٱلْغَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ اِلَيْهِ اَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ اِنْسَانٌ فَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْخِيَانَةُ) وَهِيَ ٱلِاسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ ٱلْاِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ وَٱلْاَعْرَاضِ وَٱلْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ . وَمِنَ ٱلْخِيَانَةِ اَيْضًا طَيُّ ٱلْاَخْبَارِ اِذَا نُدِبَ ٱلْاِنْسَانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ ٱلرَّسَائِلِ اِذَا حَمَلَهَا وَصَرْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ اَعْنِي ٱلْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَيَثْلِمُ ٱلْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ ٱلْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا اِفْشَاءُ ٱلسِّرِّ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْخِيَانَةِ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَٱلسِّرُّ اَحَدُ ٱلْوَدَائِعِ وَاِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ. فَٱلْمُفْشِي بِٱلسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ ٱلْمُلُوكَ وَاَوْلِيَاءَ ٱلْاُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ . وَمِنْ قَبِيلِ اِفْشَاءِ ٱلسِّرِّ اَيْضًا ٱلْغِيبَةُ وَٱلنَّمِيمَةُ وَهِيَ اَنْ يُبَلِّغَ اِنْسَانٌ اِنْسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ اَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ اَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ اِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِاَنَّ فِي ذٰلِكَ اِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ ٱلْمُبَلِّغِ وَٱلْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلْكِبْرُ) وَهُوَ ٱسْتِعْظَامُ ٱلْاِنْسَانِ نَفْسَهُ وَٱسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلِاسْتِهَانَةُ بِٱلنَّاسِ وَٱسْتِصْغَارُهُمْ وَٱلتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ ٱلتَّوَاضُعُ لَهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِاَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالِاسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكمِهِمْ وَيُبغِضُهُمْ اِلَى رَعِيَّتِهِمْ

(وَمِنهَا ٱلْجُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ ٱلْمَخَاوِفِ وَتَمْكِينُهَا فِي ٱلْعَقْلِ بِدُونِ طَائِلٍ وَعَدَمُ ٱلْاِقْدَامِ عَلَى ٱلْاُمُورِ عِنْدَ ٱللُّزُومِ وَٱلرُّعْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَوِي ٱلْاَمْرِ عِنْدَ ٱلْاِقْتِضَاءِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ اِلَّا اَنَّهُ بِٱلْجُنُودِ وَاَصْحَابِ ٱلْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلْحَسَدُ) وَهُوَ ٱلتَّاَلُّمُ مِمَّا يَرَاهُ ٱلْاِنْسَانُ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلِاجْتِهَادُ فِي اِعْدَامِ ٱلْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ اَحَدٍ

(وَمِنْهَا ٱلْجَزَعُ عِنْدَ ٱلشِّدَّةِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْجُبْنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا اِذَا لَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا نَفْعًا وَاَمَّا اِظْهَارُهُ لِلْحِيلَةِ عِنْدَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلشِّدَّةِ اَوْ لِاَسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ اَوِ ٱجْتِلَابِ مُعِينٍ لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا صِغَرُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَقُصُورُ ٱلْاَمَلِ عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَاتِ وَٱسْتِكْثَارُ ٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱسْتِعْظَامُ ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْعَطَايَا وَٱلِاعْتِدَادُ بِذٰلِكَ وَٱلرِّضَى بِاَوَاسِطِ ٱلْاُمُورِ وَاَصَاغِرِهَا . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ اَحَدٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ اَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلِاعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْجَوْرُ) وَهُوَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِي جَمِيعِ ٱلْاُمُورِ كَاَخْذِ ٱلْاَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا ٱلْحَلَالِ وَٱلْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ ٱلْحُقُوقِ وَفِعْلِ ٱلْاَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا اَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى ٱلْقَدْرِ

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ اَيضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ اَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَت فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا اِلَى ٱلِازْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَاَمَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ اِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ اَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ اَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي اَنْ يُسَرَّ اَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَاَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيوخُ وَاهلُ ٱلعِلمِ وخاصَّةً ٱلخُطَباءُ وَٱلوَاعِظُونَ ورُؤَساءُ ٱلدِّينِ فَانَّ ٱلتَّصنُّعَ بِٱلزِّينَــةِ مُستَقبَحٌ مِنهُمْ وَٱلمُستَحسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبسُ ٱلخَشِنِ وكَرَاهِيَةُ ٱلتَّنَعُّمِ ولُزُومُ بيُوتِ ٱلصَّلَاةِ

(وَمِنهَا ٱلمُجازَاةُ على ٱلمَدحِ) وَهُوَ مُجازَاةُ مَنْ يَمـدَحُ ٱلانسَانَ وَيشكُرُهُ فِي ٱلمجَالِس وَٱلمحَافِلِ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مُستَحسَنٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يدعُو ٱلمَادِحَ إِلَى ٱلازدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَـكتَسِبُ ٱلمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبقَى إِلى ٱلدَّهرِ.وَمِنْ فضَائِلِ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَساءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ ٱلجَمِيلِ. وَامَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ ٱلمَدْحِ مِنَ ٱلمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيرُ مُستَحَبٍّ مِنهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلمَلَقِ وَحُبُّ ٱلمَلَقِ مَكرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلخَدِيعَةِ كَمَا تقَدَّمَ . فَامَّا إِيثَارُهُمُ ٱنتِشَارَ ذِكرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتنَاوُلُ ٱلنَّاسِ لَهُ وَبقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ ٱلمَادِحِ مُستَحسَنَةٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَمَنعُهُمْ مُستَقبَحٌ وَعَارٌ عَلَيهِمْ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَدعُو إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبقَى ايضًا إِلَى ٱلدَّهْرِ فَيُنشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكرُوهٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ . امَّا اصَاغِرُ ٱلنَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جزَاءَ ٱلمَادِحِ لَهُمْ غَيرُ مَستَحسَنٍ لِأَنَّ ٱلمَادِحَ اذَا مَدحَ ٱلدَّنِيءَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا اجَازَهُ ٱعتَقَدَ انَّهُ اخَذَ مِنْهُ تِلْكَ ٱلجَائِزَةَ بِٱلحِيلَةِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا مُدِحُوا بِمَـا لَيسَ فِيهِمْ يُبَادِرُون إِلَى مُجَازَاةِ ٱلمَادِحِ فَيَـكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا ٱلشَّيءَ فِي غَيرِ مَوضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ ٱلشَّيءَ إِلَى ٱلضُّعفَاءِ وَاهلِ ٱلمَسكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اجمَلَ بِهِمْ وَاَليَقَ

(وَمِنهَا ٱلزُّهدُ) وَهُوَ قِلَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلأَموَالِ وَٱلِادِّخَارِ وَغَيرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِاكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَاسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِادِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

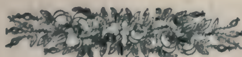
فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ. أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتْبَعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلْمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلْأَمْوَالِ فَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلْفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلْخَلِيقُ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلْآدَابِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلْمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عَظِيمَ ٱلْجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلْعَظَمَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلْعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُعَظِّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلْأَخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكرياً بن عدي)

وَبِمَا أَنَّ ٱلرَّاغِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤْثِرَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا نُبِّهَ عَلَى خُلْقٍ مَذْمُومٍ وُجِدَ فِيهِ وَأَحَبَّ ٱجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلِٱنْتِقَالُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنَلِ ٱلتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا ٱسْتَحْسَنَ أَيْضاً خُلْقاً مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ ٱلتَّخَلُّقَ بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ. لِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ نَرْسُمَ لِلرَّاغِبِينَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ طُرُقاً يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنِ ٱعْتِيَادِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلِٱنْطِبَاعِ عَلَيْهَا وَتَجَنُّبِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهٰذَا نَذْكُرُ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّعَمُّلَ لِٱعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمْكِنَ لِلرَّاغِبِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ ٱخْتِلَافِ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلنَّاسِ هُوَ ٱخْتِلَافُ قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلنَّاطِقَةُ وَأَنَّ إِصْلَاحَ ٱلْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَٱلْغَضَبِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكرياً بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور مفوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْمَحْمُودِ مِنْ أفعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِلْاسْتِعْمَالِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذْلِيلِ هَاتَيْنِ ٱلْقُوَّتَيْنِ

أَمَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ إِلَى قَمْعِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ ٱلْإِنْسَانُ فِي أَوْقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ ٱلْعَزْمِ إِلَى لَذَّاتِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَذْلِيلَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ فَيَعْدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ ٱلشَّهْوَةِ وَمُتَّفَقٌ عَلَى ٱرْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَإِنْ لَمْ تَنْكَسِرْ شَهَوَاتُهُ يُعَلِّلُهَا وَيَعِدُهَا فَإِنْ سَكَنَتِ ٱنْتَصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ ٱلْفِعْلَ مِنَ ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحْسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَإِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلْحَالِ أَلِفَتْ هٰذِهِ ٱلْعَادَةَ وَتَأَنَّسَتْ بِهَا وَٱسْتَوْحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَأَهْلِ ٱلْعِلْمِ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِٱلْعِفَّةِ وَيَسْتَزْرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنْهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلْمَجَالِسِ تَضْطَرُّهُ إِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوْقِهِمْ لِئَلَّا يَسْتَزْرُوهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيَلْحَقَ بِرُتْبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَأَخْبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلْخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلْمُنْهَمِكِينَ وَمَنْ يُكْثِرُ ٱلْهَزْلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلْحَقُ بِرُتْبَتِهِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ. وَأَكْثَرُ مَا

يجب له ان يتجنب السكر فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها. وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة... اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع الم الجوع. وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة. والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه... وطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى اي شيء وجده من المأكل فان كان المشتهى الذي تاقت نفسه اليه حلوا فالا اي حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالا ما يشتهيه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغي لمن احب العفة ان يكون ابدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا جاعلا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره. فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها. فهذا هو طريق رياضة النفس

اِلَى قَهْرِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَمْعِهَا اَعْنِي طَرِيقَ ٱلْاِرْتِيَاضِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْمَرْضِيَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ ٱلدَّنِيئَةِ

فَاَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَاِنَّ طَرِيقَ قَمْعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ اَنْ يَصْرِفَ ٱلْاِنْسَانُ هِمَّتَهُ اِلَى تَفَقُّدِ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلَّذِينَ يُسْرِعُ اِلَيْهِمِ ٱلْغَضَبُ فِي اَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدَّتِهِمْ وَيُلَاحِظَ تَسَفُّهَهُمْ عَلَى اَخْصَامِهِمْ وَعُقُوبَتَهُمْ لِخَدَمِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ فَاِنَّهُ يُشَاهِدُ اِذْ ذَاكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْنَفُ مِنْهُ ٱلْخَاصُّ وَٱلْعَامُّ وَاَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جِنَايَاتِ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ وَوُثُوبِ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ اُولَئِكَ. فَاِنَّهُ اِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ ٱسْتَخَفَّهُ مِنْهُمْ فَتَنْكَسِرُ بِذٰلِكَ سَوْرَةُ غَضَبِهِ وَيُحْجِمُ عَمَّا هَمَّ بِٱلْاِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّبِّ وَٱلْوُثُوبِ فَاِنْ لَمْ يَكُفَّ بِٱلْكُلِّيَّةِ قَصَّرَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ اِلَى غَايَةِ ٱلْفُحْشِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ اَنْ يَقْهَرَ نَفْسَهُ ٱلْغَضَبِيَّةَ اَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ اَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ اَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ ٱلْجَانِي مَا ٱلَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ اَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ فَاِنَّهُ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ يَعْتَقِدُ اَنَّ دَرَكَ تِلْكَ ٱلْجِنَايَةِ وَذٰلِكَ ٱلْاَذَى يَسِيرٌ. جِدًّا فَاِذَا ٱعْتَقَدَ ذٰلِكَ كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي ٱلْمُؤْذِي بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا يُسْرِفُ فِي ٱلْاِنْتِقَامِ وَلَا يُفْحِشُ فِي ٱلْغَضَبِ فَمَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ دَائِمًا وَجَعَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ ٱلسُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ اِلَيْهِ ٱلْغَضَبُ لَمْ يُبْعِدْ اَنْ تَنْكَسِرَ نَفْسُهُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَتَنْقَادَ اِلَيْهِ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا

ٱلعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلقَلْبِ وَتُغْلِظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلفِكْرَ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلغَضَبِ وَٱلِانْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ أَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلقُوَّةِ ٱلغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمْكَنَهُ أَنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْحَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلْإِرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ • فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْإِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَاتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ امَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا الَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِسْرَاعِ الَى ٱلْاِنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ امْرَهُ فَرَأَى انَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعْيَرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ارْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ ايْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَامْثَالِ هٰذِهِ اذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَانِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مَضَرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِأَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَّرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَاذَا حَاسَبَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ انَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْاَخْلَاقِ اكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَانَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَانَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ارَادَ سِيَاسَةَ اخْلَاقِهِ انْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى الَّا

بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذٰلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُتْبَةً مَرْضِيَّةً إِنْ فَاتَتْهُ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ قَنِعَ بِٱلتَّوَسُّطِ يَأْمَنُ أَنْ يُقَصِّرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى ٱلْمَرَاتِبِ وَيَفُوتُهُ ٱلْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي ٱلتَّمَامِ.

فَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ ٱلتَّدَرُّجِ فِي مَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةِ تَهْذِيبِهَا فَإِذَا أَخَذَ ٱلْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ نَفْسِهِ بِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ ٱلْفَضَائِلُ دَيْدَنًا وَٱلْمَحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هٰذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلتَّامِّ ٱلْجَامِعِ لِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ... فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلتَّامَّ هُوَ ٱلَّذِي لَمْ تَفُتْهُ فَضِيلَةٌ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشِنْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ وَهٰذَا ٱلْحَدُّ قَلَّمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَيْهِ ٱفْتِرَاضًا كَانَ أَشْبَهَ مِنْهُ بِٱلنَّاسِ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ ٱلنَّقْصِ مُسْتَوْلٍ عَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ ٱلشَّرِّ وَبِنَاءً عَلَى ذٰلِكَ فَقَلَّمَا يَخْلُصُ مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقَصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ فَضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ حَسَنَةٍ فَٱلتَّمَامُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ ٱلتَّنَاوُلِ إِلَّا أَنَّهُ مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ وَأَعْطَى ٱلِٱجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمْكِنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْمَقْصُودَةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ هُوَ لَهَا تِلْكَ ٱلَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذٰلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَيَقِّظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ اَقَلَّ اَوْصَافِهِ • •

فَمَا اَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَاَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ اَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ اِلَى مَا فُنِّنَ فِي اَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلِاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ • وَمَا اَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدِرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوَّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : اَمعاشِرَ ٱلكُتَّابِ اَحسِنُوا ٱلاَبتِدَاءَاتِ فَاِنَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيَانِ . وَذٰلِكَ اَنْ يَجعَلَ ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دعَاهُ لِاِلقَائِهِ فَينظُرَ اِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ اَوِ ٱلدُّعَاءَ اوِ ٱلتَّضمِينَ مُشعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلاَبتِدَاءَاتُ بِٱلاَختِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلاَبتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِاَستِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ اَسمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُمْ بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ اَنْ يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ اَكثَرَ ٱلاَبتِدَاءَاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

اِلَى ٱلِاسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ اَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ اَوِ ٱلرَّسَائِلِ اَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ اِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَاِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً اَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي. وَفَائِدَتُهُ اَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اَبْوَابَ ٱلْاَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْاَذْهَانَ لِلِاسْتِمَاعِ. وَهٰذَا ٱلشَّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ اِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى اَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلِاسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ اَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ اِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ اَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَاِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْاَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ. وَٱلْقَضِيَّةُ اِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَاِمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: اِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ اَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

ٱلْحُكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً. فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا: (زَيْدٌ نَائِمٌ). قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ. لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ ٱلْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَٱلثَّانِي مَحْمُولًا. وَقَوْلَنَا: (إِنْ كَانَتِ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً فَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ. لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَٱلْفَاءَ) ٱلْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ: (ٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ. وَٱلْقَضِيَّةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَاتِبٌ. وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ ٱلْمَوْضُوعِ. وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً. وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ عَلَى ٱلتَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ: لَوْ كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا. وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِٱمْتِنَاعِ ٱجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي ٱلصِّدْقِ وَهِيَ ٱلَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ. وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَٱلثَّانِي تَالِيًا. وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْبَسِيطَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِٱلضَّرُورَةِ.

وَاِمَّا سَلْبٌ فقط نحْوُ: لَا شَيْءَ مِنَ ٱلْإِنسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ اِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نحْوُ: كُلُّ اِنسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ اِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ اُصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ اَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ اَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدَّمَةً وَقَضِيَّةً. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليَّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَاَمَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا اِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اَضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَاِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا اَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ. وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ اِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِٱلرِّدْفِ اَيضاً. وَمَوْضُوعُ ٱلنَّتِيجَةِ هُوَ ٱلحَدُّ ٱلْاَصْغَرُ وَٱلمَحْكُومُ فِيهَا هُوَ ٱلحَدُّ ٱلْاَكْبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي ٱلْقَضِيَّتَيْنِ ٱلْاُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ ٱلْقَضِيَّةَ ٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلْاَكْبَرِ مُقَدَّمَةً كُبْرَى وَٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلْاَصْغَرِ مُقَدَّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلصُّغْرَى بِٱلْكُبْرَى فِي ٱلْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِٱلضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ ٱلحَدِّ ٱلْاَوْسَطِ اِلَى ٱلْاَصْغَرِ وَٱلْاَكْبَرِ هُوَ ٱلشَّكْلُ. وَاَشْكَالُ ٱلْقِيَاسِ اَرْبَعَةٌ لِاَنَّ ٱلْاَوْسَطَ اِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى مَوْضُوعًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلْاَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي ٱلنَّارِ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِ هٰذَا ٱلشَّكْلِ اِيجَابُ ٱلصُّغْرَى وَكُلِّيَّةُ ٱلْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِاَنَّهُ يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي ٱلْاَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ بَلْ اِمَّا مُوجَبَةً جُزْئِيَّةً اَوْ سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ ٱلحَدُّ ٱلْاَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِاِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ ٱلْبَعْضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجْهُولُ ٱلصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيْعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ ٱلصِّفَةِ فَٱلنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيْعُهُ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ ٱخْتِلَافُ مُقَدَّمَتَيْهِ فِي ٱلْاِيجَابِ وَٱلسَّلْبِ وَكُلِّيَّةُ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّهُ لَا يُنْتِجُ اِلَّا سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ ٱلْاَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّالِثُ) نَحْوَ كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ اَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجَبَةً

وَاَنْ تَكُونَ اِحدَى مُقَدَّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً. وَاِنْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلْاَوْسَطُ عَكْسَ ٱلْاَوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنْسَانٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلْقِيَاسُ يُقْسَمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَٱلْقِيَاسُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ اَنْ نُبَيِّنَ اَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَٱلْغَيْرُ ٱلْكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ ٱلْاَمْرِ اَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَٱفْتِرَاضُهُ. وَٱلْقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِٱلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِاقْتِرَانِ ٱلْحُدُودِ فِيهِ. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ اَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: اِنْ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيَّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِاَقْسَامِ ٱلْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ أُخَرُ يُقْسَمُ اِلَيْهَا. (اَوَّلُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يُنْتِجُ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلْأُخْرَى نَتِيجَةٌ أُخْرَى وَلَا تَزَالُ نَتَائِجُ بَعْضِهَا مُقَدَّمَاتٍ لِبَعْضٍ إِلَى اَنْ يَحْصَلَ ٱلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْأَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَوْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصْلِ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْأَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَفْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ. وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ. وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلْخُلْفِ. وَهُوَ قِيَاسٌ ٱسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ اِثْبَاتُ ٱلْمَطْلُوبِ بِاِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا اِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ. فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ. لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

ٱلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خَلْفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيْ مِنْ وَرَائِهِ .
(وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ أَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِٱسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتَجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِهٰذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْأَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ. (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ: الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ. (وَالثَّالِثُ) الْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ: الصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ. وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ. (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ: الْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ. (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ: هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ. وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْاسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

ٱسْتِقْرَاءٌ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي ٱلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ • وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلِٱسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ٱسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ بِٱسْتِقْرَاءٍ • فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلِٱسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطْبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاءُ إِذَا تُؤُمِّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ أَعْنِي إِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَإِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَٱلْقِيَاسِ • وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلْقِيَاسِ وَأَنَّ ٱلِٱسْتِقْرَاءَ وَٱلْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ وَمَا ٱلْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ أَيْضًا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِٱسْتِقْرَاءِ. وَٱلِٱسْتِقْرَاءُ وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هذين الجنسين من القول نوعا خطبيا ونوعا جدليا ونوعا برهانيا ونوعا سوفسطائيا. فانه كما يوجد الاستقراء والقياس في هذه الصنائع كذلك يوجد في الخطابة المثال والضمير وانما يختلف في هذه الصنائع بجهة الاستعمال اعني في صناعة البرهان وصناعة الجدل. والقياس في الجدل اوثق من الاستقراء والمثال في الخطابة اقنع من الضمير لان الضمير يتطرق اليه العناد اكثر من تطرقه الى المثال وسبب هذا سنخبر به فيما بعد وكذلك كيف نستعمل هذه الاشياء. فاما الآن فينبغي ان نحدد هذين الطريقين من الاقناع اعني الضمير والمثال فنقول :

ان القول المقنع اما ان يكون مقنعا لواحد من الناس او لجماعة من الناس او لاكثر الناس. وايضا منه ما يكون اقناعه في امر كلي ومنه ما يكون في امر جزئي. وكلا هذين منه ما يكون اقناعه بينا بنفسه ومنه ما يكون اقناعه بغيره. والذي يكون اقناعه بغيره في الجزئيات ضربان (احدهما) ان يقول القائل : ان كذا انما هو كذا لموضع كذا. مثل قول القائل: ان شراب السكنجبين ينفع فلانا لانه محموم. وهذا هو الذي يسمى الضمير. (والضرب الثاني) ان يقول: ان كذا انما كان كذا لانه مثل كذا. مثل ان يقول. ان فلانا ينتفع بشراب لسكنجبين لان فلانا انتفع به. وهذا هو الذي يسمى المثال. والمقنعات التي هي مقنعة عند واحد من الناس فليس تستعملها

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتِّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرِّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدَّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُصْنَعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُمْكِنَةِ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاوَرِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعِ ٱلْوُجُودِ وَكَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمَوَادِّ كَاذِبَةً بِٱلْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِئَلَّا يُفْطَنَ لِكَذِبِهَا . وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلصَّنْعَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِمَّا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ إِقْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ مُقَدَّمَاتٍ تَتَبَيَّنُ مُقَدَّمَاتُهَا بِمُقَدَّمَاتٍ أُخَرَ تُخْلَطُ بِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرُورَةً فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي أَنْ يَعْسُرَ تَأْلِيفُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ لِمَكَانِ كَثْرَةِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَطُولِ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي يُصَرَّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتُرَتَّبُ تَرْتِيبًا صِنَاعِيًّا وَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ ٱلْحُكَّامُ بَلْ يَحْمِلُونَ ٱلْمُتَكَلِّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلَّفٍ فِيهِ صَنْعَةٌ عَلَى ٱلْجُمْهُورِ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ ٱلْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا ٱلْإِقْنَاعُ أَعْنِي فِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مَحْمُودٌ أَوْ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَكَذٰلِكَ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلتَّصْدِيقُ بِطَرِيقِ أَخْذِ ٱلْأَشْبَاهِ فَٱسْتُقْصِيَ وَجُعِلَ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ عَرَضَ ٱلْعُسْرُ ٱلَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلطُّولِ وَٱلْكَثْرَةِ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَإِذَنْ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ وَٱلْمِثَالُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْقِيَاسُ وَٱلِٱسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

ٱلأَشْيَاءِ مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاءِ . فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلأَشْيَاءُ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا. وإِذَا أُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا . وتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ اخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ اكْثَرَ ذٰلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَايْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ انْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتِهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ انْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ. وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّهَا كُلَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ. وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ. وَأَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ. مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ إِلَى ٱلْمُسِيءِ. وَأَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ. وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ أَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ. وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي. وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةَ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ. وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي إِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي. وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُمَا. أَمَّا ٱلَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمُتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدَّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدَّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

وَٱلدَّلَائِلُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ وَٱلثَّانِي تُخَصُّ بِٱسْمِ ٱلعَلَامَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ يُخَصُّ بِٱسْمِ ٱلدَّلِيلِ . وَٱلَّذِي فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي هُوَ اَخَصُّ بِٱسْمِ ٱلعَلَامَةِ مِنَ ٱلثَّالِثِ كَمَا اَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلْأَكْثَرِيَّةِ يُخَصُّ بِٱسْمِ ٱلْأَشْبَهِ وَاِنْ كَانَ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي خُصَّ بِٱسْمِ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُشْتَبِهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ مَا هِيَ ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلعَلَامَاتُ وَمَا ٱلفَرْقُ بَيْنَهُمَا . لٰكِنَّ ٱلَّذِي تَبَيَّنَ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلقِيَاسِيَّةِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ اِنَّمَا هُوَ فِي كِتَابِ ٱلقِيَاسِ فَاِنَّهُ هُنَالِكَ تَبَيَّنَ مَا هُوَ ٱلقِيَاسُ وَكَمْ اَجْنَاسُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلقِيَاسِيَّةِ وَتَبَيَّنَ فِي جِنْسٍ جِنْسٍ مِنْهَا مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا لَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَاَمَّا (ٱلْمِثَالُ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ اَنَّهُ ٱسْتِقْرَاءٌ مَا لٰكِنْ يُبَايِنُ ٱلِاسْتِقْرَاءَ بِاَنَّهُ لَيْسَ يُصَارُ فِيهِ لَا مِنَ ٱلْجُزْئِيِّ اِلَى بَيَانِ ٱلْأَمْرِ ٱلْكُلِّيِّ كَمَا يُصَارُ فِي بَعْضِ اَنْوَاعِ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَلَا مِنَ ٱلْكُلِّيِّ اِلَى ٱلْجُزْئِيِّ كَمَا قَدْ يُصَارُ فِي بَعْضِ اَنْوَاعِ ٱلِاسْتِقْرَاءِ . وَذٰلِكَ اِذَا بَيَّنَّا بِٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي اَثْبَتْنَاهُ بِٱلِاسْتِقْرَاءِ جُزْئِيًّا آخَرَ غَيْرَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلَّتِي اَثْبَتَهَا ٱلْكُلِّيُّ بِٱسْتِقْرَائِهَا وَيُوَافِقُهُ فِي اَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ لِٱجْتِمَاعِهِمَا فِي اَمْرٍ كُلِّيٍّ . وَذٰلِكَ اِذَا جَمَعْنَا فِي ٱلِاسْتِقْرَاءِ ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا اَعْنِي اَنْ نَصِيرَ فِيهِ مِنَ ٱلْجُزْئِيِّ اِلَى ٱلْكُلِّيِّ ثُمَّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ اِلَى جُزْئِيٍّ آخَرَ فَاِنَّا فِي هٰذَا ٱلفِعْلِ قَدْ صِرْنَا مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ يَتَوَسَّطُ ٱلْكُلِّيُّ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْمِثَالِ فَاِنَّ ٱلْمِثَالَ اِنَّمَا يَصِيرُ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ

لِأَشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلِٱسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتُكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ . فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتُكَ بِهِ. إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلْأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَا هُنَا. وَسَبَبُ عُمُومِهِ اَنَّ ٱلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ ٱلْقِيَاسَاتُ ٱلْجَدَلِيَّةُ لٰكِنَّ مِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي فِي ٱلصَّنَائِعِ. مِثْلَ ٱلضَّمَائِرِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ وَٱلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ. وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي تَخُصُّ ٱلْخَطَابَةَ مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنَ خُطْبَةٍ. وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ اَتَمَّ فِعْلًا وَاَنْفَذُ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ. وَمِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ ٱلْخُطَبَاءُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي اَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي هِيَ فُصُولُ ٱلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةً صِنَاعَةً



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اَصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْاِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارُ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلْأَنظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ • فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنًى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ• وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ. وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ. وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ. وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدَّمَةِ حَيْثُ قَالَ: وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُنَاظِرِينَ فِي ٱلْاِسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلْاِحْتِجَاجِ. وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَاَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ اِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْاَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْاِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. اِلَّا اَنَّ صُوَرَ ٱلْاَدِلَّةِ وَٱلْاَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْاَمْصَارِ ٱلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تُظْهِرَ ٱلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلْبَحْثُ لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْاِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفرُقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ ٱلْبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَاِ وَٱسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ اِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِاِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْاَطِبَّاءُ. وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ. اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ. وَاَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنَّ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهِمًا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ ٱلْحَسَدِ وَٱلْغَضَبِ وَمُحِبَّ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ وَٱلشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَٱمْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ • أَمَّا ٱلَّذِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَٱلْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ ٱلْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَٱلطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ ٱلْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ وَٱلدُّنْيَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى وَٱلْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ. وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَٱلْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ ٱلْأَحْمَقِ وَذٰلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى ٱلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد. ولا نعلم عمَّنْ رواهُ الغزّالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ. وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ. وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِٱسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِٱشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا. وَفِي ٱلْحَدِيثِ: نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ: إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبَعِّدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ:

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا   أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلَمْ لِمْ
إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ   سِوَى حَرْفَيْنِ لَمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ. وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ. قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ: إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ. وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ. وَيَجْلُبُ ٱلضَّغَائِنَ. وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ. وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا. سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ. وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ اَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَاَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَاَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَاَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِاَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجِّلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا اَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ اُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْاَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَاَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَاُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ • وَلَا سِيَّمَا اِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ اَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ اَنْ رَاَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْنَائِهِ حَتَّى اِذَا ٱطْمَاَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ اَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَاَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ اَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطْبِقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى اَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ اَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا اَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْاَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاس فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ إِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِاقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: إِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

أَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَأَشْبَاهِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعَانِي. (وَٱلْأَوَّلُ) يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلْأَلْفَاظِ لَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبِهَا وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبِهَا. (وَٱلْأَوَّلُ) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِٱلْأَلْفَاظِ أَنْفُسِهَا وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مُخْتَلِفَةَ ٱلدَّلَالَةِ فَيَقَعَ ٱلْاِشْتِبَاهُ بَيْنَ مَا هُوَ ٱلْمُرَادُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ . وَيَدْخُلُ فِيهِ ٱلِٱشْتِرَاكُ وَٱلتَّشَابُهُ وَٱلْمَجَازُ وَٱلِٱسْتِعَارَةُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا وَيُسَمَّى جَمِيعًا بِٱلِٱشْتِرَاكِ ٱللَّفْظِيِّ . وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَحْوَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَهِيَ إِمَّا أَحْوَالٌ ذَاتِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي صِيَغِ ٱلْأَلْفَاظِ قَبْلَ تَحَصُّلِهَا كَٱلِٱشْتِبَاهِ فِي ٱللَّفْظِ ٱلْمُخْتَارِ بِسَبَبِ ٱلتَّصْرِيفِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى ٱلْفَاعِلِ أَوِ ٱلْمَفْعُولِ . وَإِمَّا أَحْوَالٌ عَارِضَةٌ لَهَا بَعْدَ تَحَصُّلِهَا كَٱلِٱشْتِبَاهِ بِسَبَبِ ٱلْإِعْجَامِ وَٱلْإِعْرَابِ . (وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِٱلتَّرْكِيبِ) تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ ٱلْاِشْتِبَاهُ فِيهِ بِنَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ ٱلْعَاقِلُ فَهُوَ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ . فَإِنَّ لَفْظَ (هُوَ) يَعُودُ تَارَةً إِلَى ٱلْمَعْقُولِ وَتَارَةً أُخْرَى إِلَى ٱلْعَاقِلِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ أَيْ بِوُجُودِ ٱلتَّرْكِيبِ وَعَدَمِهِ . وَهٰذَا ٱلْآخِرُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلتَّرْكِيبُ فِيهِ مَوْجُودًا فَيُظَنُّ مَعْدُومًا وَيُسَمَّى تَفْصِيلَ ٱلْمُرَكَّبِ . وَإِلَى عَكْسِهِ وَيُسَمَّى تَرْكِيبَ ٱلْمُفَصَّلِ وَأَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِٱلْمَعَانِي) فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِٱلتَّأْلِيفِ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي إِذِ ٱلْأَفْرَادُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَلَطٌ لَوْ لَمْ يَقَعْ فِي تَأْلِيفِهَا بِنَحْوٍ مَا وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلْقَضَايَا أَوْ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَٱلْوَاقِعَةُ بَيْنَ ٱلْقَضَايَا إِمَّا قِيَاسِيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِٱعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ . وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيهَامَ الْعَكْسِ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمُطْلَقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلُ الْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشُّرُوطِ أَوِ الْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالْبَسَائِطِ هِيَ الْاِشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الذَّاتِيَّةِ وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمُصَادَرَةُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ الْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجَبِّنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ وَٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِهَا نِظَامٌ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلُطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ. وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ. وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ. وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ. حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ:

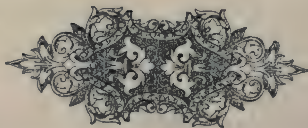
إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا ... أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ: أَتَاكُمْ وَٱللّٰهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ: أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ: نَعَمْ فَوَٱللّٰهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللّٰهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَتَعَلَّمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَصْرِفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُغْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعَصَاه(ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا اَوْجَدَهُ ٱللّٰهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَاَنْشَأَهُ اَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ اِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ اَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شُبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقًا وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا اِلَّا اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللّٰهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا اُعْجَبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسِمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا اَلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : اَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

ٱلْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمِرٍ ٱلْغَسَّانِيُّ يَقُولُ لِكَاتِبِهِ ٱلْمُرَقِّشِ: إِذَا نَزَعَ بِكَ ٱلْكَلَامُ إِلَى ٱبْتِدَاءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ أَلْفَاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَمْذُقَ بِهِ نَفَرَتِ ٱلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِهَا وَمَلَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱسْتَثْقَلَتْهُ ٱلرُّوَاةُ. وَكَانَ بَزُرْجُمْهَرَ يَقُولُ: إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَٱجْعَلْ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ ٱلْمَدْحَ مِنَ ٱلْهِجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا ٱسْتَأْنَفْتَ ٱلْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ ٱللَّفْظِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ ٱلْحَرَّانِيِّ: مَا مَنْزِلَةُ ٱلْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ: أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِٱلتَّجْرِبَةِ سَالِمًا بِحَلَالِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَحَرَامِهَا بِٱلدُّهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِٱلْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَأَيَّامِهَا مَعَ بَرَاعَةِ ٱللَّفْظِ وَحُسْنِ ٱلنَّسَقِ وَتَأْلِيفِ ٱلْأَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ ٱلْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُوَرُهَا. وَبِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: مَا أَتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَحْلُولِ إِلَى ٱلْمَعْقُودِ وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةُ ٱلْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيقَاعُ ٱلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَشَحْذُ ٱلْفِكْرِ وَإِجَالَتُهَا فِي لُطْفِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَعْقُودِ إِلَى ٱلْمَحْلُولِ. (قُلْنَا): وَمَعْنَى ٱلْمَعْقُودِ وَٱلْمَحْلُولِ هَا هُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ٱبْتَدَأْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ ٱلتَّخَلُّصِ فَمَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ ٱلْكَلَامَ مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ ٱلسُّتُورَ وَأَبَنْتَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَنْزُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَحْلُولًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ اَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدِرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا اَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَاَوْرَدتَّ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَٱعْلَمْ اَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدتَّ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ اَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ اَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا اَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمَحْلُولِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعَ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ اَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي اَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ اَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصَدِهِ كَمَا اَنَّ اَخْيَرَ اَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَاَنَا مُوكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنُّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: اِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْإِسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدِنِهِ. وَإِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَإِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ وَمَنْ أَذَاعَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا وَيُهَجِّنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلَى أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا أَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا إِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدتَّ وَإِمَّا عِنْدَ ٱلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ أَرَدتَّ. وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّضِعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ. وَإِنَّمَا مَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَإِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ. وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَإِنْ أَمْكَنَكَ أَن تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوَهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَجْفُو عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ. فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ جُعِلْتَ فِدَاكَ أَنَا أَحْوَجُ إِلَى تَعَلُّمِي هٰذَا ٱلْكَلَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ اَسْعَدَكَ ٱللهُ اِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِم ٱلْقَوْلَ فِي اَقْسَامِهَا وَاَنْوَاعِهَا وَاَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْاَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَاَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْاَلفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

فَاِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي   وَاِنْ خِلْتُ اَنَّ ٱلْمُنْتَاَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْاَعْشَى: (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِاِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْاَصلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا اَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَاَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِاَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِاَعْذَبِ ٱلْاَلفَاظِ وَاَحَقِّهَا عَلَى ٱلْاَسْمَاعِ وَاَقْرَبِهَا اِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ اَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى اُمَّةٍ دُونَ اُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ اَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ اَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأُمَّةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْاَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ اَبُو اَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ اَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ اُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَاَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَاَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَاَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا اَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي اَنْ يُحَاضِرَ اَهْلَ ٱلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا اَوْ شَاكِرًا اَوْ عَاتِبًا اَوْ مُهَنِّئًا اَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ اِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْاَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَاَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا　　لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَاِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللّٰهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْاَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ اَنْ يُدْرِكَ شَاْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

اَلتَّقرُّبُ مِنْ مَعنَى ٱلبُغيَةِ وَٱلتَّباعُدُ مِنْ حَشوِ ٱلكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ ٱلشَّيخُ : وَاكْثَرُ مَا عَلَيهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلبَلَاغَةِ انَّهَا ٱلِاخْتِصَارُ وَتَقرِيبُ ٱلمَعَانِي بِٱلالفَاظِ ٱلقِصَارِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى ٱلإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلقَلِيلِ عَلَى ٱلكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ بَعضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ : لَمحَةٌ دَالَّةٌ . وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ اكْثَرُهُمْ فِي ٱلحَذفِ وَٱلِاخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلقَيسِ إِحضَارَ فَرَسِهِ وَسُرعَةَ لَحَاقِهِ لِلصَّيدِ وَانَّ ٱلاوَابِدَ لَا تَطمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَولِهِ : (قَيدُ ٱلاوَابِدِ) . وَكَذٰلِكَ قَولُ زُهَيرٍ : (إِنَّ ٱلجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ) . فَفِي قَولِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَولُ ٱلاعْشَى : فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلمَنِيَّةُ تَنطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا اورَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعفَرُ بْنُ يَحيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثلَ ٱلتَّوقِيعِ يَحضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلحَذفِ وَٱلِاخْتِصَارِ . وَمِنْ هٰذَا انَّ ٱلمَأْمُونَ امَرَ عَمرَو بْنَ مَسعَدَةَ ٱلكَاتِبَ انْ يَكتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعضِ ٱلعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَانْ يَختَصِرَ كِتَابَهُ مَا امكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمرٌو : كِتَابِي إِلَيكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيهِ مَعنِيٌّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَينَ ٱلثِّقَةِ وَٱلعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلوَلِيدُ بْنُ عَبدِ ٱلمَلِكِ بْنِ مَروَانَ إِلَى ٱلحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيعَتِهِ : امَّا بَعدُ فَإِنِّي ارَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ اخرَى فَإِذَا اتَاكَ كِتَابِي فَٱعتَمِدْ عَلَى ايِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ . وَسَاذكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ اذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرُكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَإِنَّ
ٱلْانْسَانَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ ٱلْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ
فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ ٱلصَّوَابَ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى
ٱلْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ ٱلْعِرَاقِيُّ لِلْإِسْكَنْدَرِ:
اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ ٱلْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ ٱلصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ
لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) فَٱنْظُرِ ٱلْآنَ كَمْ
مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ يَعْنِي أَنَّ حُسْنَ خُلْقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ
إِلَى صَدَاقَتِهِ وَأَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَأَنَّ
عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي ٱلدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي
مُسْتَقْبَلِ ٱلْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ
أَفْصَحَ وَأَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ أَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ ٱلْفُرْسِ فِي أَمْرِهِ
قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَٱعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ
بِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَكْثَرَ مَعَانِي ٱلسِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى أَنَّ
بَعْضَهُمْ رَأَى شَابًّا لَا أَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ
لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ أَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ
قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ أَرِسْطَاطَالِيسُ: ٱلْحَاجَةُ إِلَى ٱلْعَقْلِ أَقْبَحُ مِنَ
ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ ٱلشَّرَفِ هُوَ ٱلَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ
بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَأَى
سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ إِلَى
ٱلْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ أُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: ٱلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنٌّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّما فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ اَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَاَخَّرَهُ: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِم وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اَوْصَلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ قَحِطُوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ ٱلْمَالِ : إِذَا قَحِطَ ٱلْمَطَرُ جَادَتْ سَحَائِبُ ٱلْمَلِكِ. فَفَرِّقْ فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَانَهُمْ . وَشُكِيَ مِثْلُ ذٰلِكَ إِلَى قُبَاذَ بْنِ كِسْرَى فَوَقَّعَ لِيَكُنْ بِنَا ٱلْبِرُّ لِلرَّعِيَّةِ وَٱلْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ فَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ فِي نَفْعِ ذٰلِكَ مُسْتَوُونَ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَاذَ بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ وَكَانَ ٱلْمَدْحُ فِي رُقْعَةٍ . فَوَقَّعَ فِيهَا كِسْرَى إِنِّي لِلْمَدْحِ مُسْتَصْغِرٌ لِعِلْمِي بِأَشْيَاءَ قَدْ مُدِحَتْ وَكَانَتْ بِأَنْ تُذَمَّ مَحْقُوقَةً . وَوَقَّعَ أَنُوشِرْوَانُ فِي رُقْعَةِ مُتَنَصِّحٍ : ثَمَرَاتُ ٱلنَّصَائِحِ شُكْرُ ٱلْجَوَارِحِ وَخَرَجَ ٱلتَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ ٱللِّسَانِ شُكْرَ ٱلْيَدِ وَهُوَ ٱلْبَذْلُ . وَوَقَّعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا ٱلنُّقْلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَٱخْتَارَ صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ . أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومِ مَنْزِلَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى ٱللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ جَمْعُ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ فَقَدْ سُئِلَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَنَا نَرَى فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْقَلِيلِ عِدَّةَ مَعَانٍ . فَقَالَ : إِنَّ كَلَامَ ٱلْعَرَبِ أَوْعِيَةٌ وَٱلْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلْأَمْتِعَةِ فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ . . . وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ ٱبْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيعَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَجُودَةَ لِسَانٍ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ ٱلْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا . وَحَكَى ٱلْمُفَضَّلُ قَالَ : قُلْتُ

لِلأَعرابي: مَا ٱلبَلاَغَةُ. فقَالَ: ٱلايجازُ مِنْ غَيرِ عَجزٍ وَٱلاِطنَابُ فِي غَيرِ خَطَلٍ. ووَصَفَ ٱلجَاحِظُ يَحيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتوَقَّفُ وَلَا يَستَدْعِي مَعنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلبَلِيغُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلاَلفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلمَعَانِي فِي نَفسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلبَلَاغَةِ اَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلمَعَانِي مِنْ اَجلِهَا. وَحَالًا يَحتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلاَلفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلاَلفَاظِ وَٱلمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَختَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقصَدُ فِي ٱستِعمَالِهَا. اَحَدُهَا ٱلمُسَاوَاةُ وَهِيَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ كَٱلقَالَبِ لِلمَعنَى لَا يَفضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلاِشَارَةُ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ مُشَارًا بِهِ اِلَى ٱلمَعنَى بِٱللَّمحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّذيِيلُ وَهُوَ اِعَادَةُ ٱلاَلفَاظِ ٱلمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلمَعنَى ٱلوَاحِدِ بِعَينِهِ حَتَّى يَظهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِندَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَذَاهِبِ مَوطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقتٌ لَا يَصلُحُ فِيهِ غَيرُهُ. وَسَاَذكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلفُصُولِ ٱلقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَغَيرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلفِقَرَ ٱلمُختَارَةَ وَٱلمَعَانِيَ ٱلمَجمُوعَةَ بِٱللَّفظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. وَكَقَولِ اَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ سِتُّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ اِلَيهَا اَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنهَا بِاَلفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ اَصحَابِهِ وَمِنَ ٱلاُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلاُولَى قَولُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ اَعدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقتَضِيكَ مَا عَوَّدتَهُ.

اَلرَّابِعَةُ : رَحِمَ ٱللّٰهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . اَلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . اَلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجُرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ . ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ . عُوجُ ٱللَّبَانِ طَوْعُ ٱلْعَنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللّٰهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ . دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ . حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ . ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَجِيُّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِٱنْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ اَمَلٍ اَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ اَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَاِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : اَنَا اَسَاَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ اِلَيْكَ اَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ اِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ: هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا اَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : اَلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ اِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَاِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ اَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ اَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ اَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ اِلَيْهِم ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ . وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ اِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ . وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ اِمَّا مُنَاظِرٌ وَاِمَّا حَاكِمٌ وَاِمَّا ٱلْمَقْصُودُ اِقْنَاعُهُ . وَٱلْحَاكِمُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبِلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ . وَاِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ . وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ اِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ . وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْاَمُورِ ٱلْمُسْتَقْبِلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هٰذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ). وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ اجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ اِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ اِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ اِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ اِمَّا مَدْحٌ وَاِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبِلُ لِأَنَّهُ اِنَّمَا يُشِيرُ اِنْسَانٌ عَلَى اِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ. وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ اِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَاِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ. وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَاِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ •
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ • مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا
أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ
أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
ٱلْجَوْرِ • وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ
كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا
عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا • مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي
ٱلشَّرِيعَةِ • وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ
ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَعَضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ
فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ • وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ
يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ • فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ • وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ . (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدَّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجَرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدَّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسهِ)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاَخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ
وُجُودُهُ اوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَٱفْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَامَّا مَا
كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَاقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي
ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْإِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْإِنْسَانَ
اِنَّمَا يَنْظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ
كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعِي
فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ
هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نُرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ
بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا
لَا ٱلْاُمُورُ ٱلِاضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ
بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ
مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ
شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ
ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ
وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ .
وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ
ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ
ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا
قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ أَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا أَعْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنْهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى اَهْلِ مَدِينَةٍ بِاَسْرِهِمْ وَمِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ اَهْلِ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ): فَامَّا ٱلاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِنْ أُمورِ ٱلْمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ اَنْ تَكُونَ خَمْسَةً. اَحَدُهَا ٱلاِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلْمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلْاَموَالِ لِلْمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلْاِشَارَةُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلاِشَارَةُ بِحِفْظِ ٱلْبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلْاِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْبَلَدِ وَيَخْرُجُ عَنْهُ. وَٱلْخَامِسُ ٱلْاِشَارَةُ بِٱلْتِزَامِ ٱلسُّنَنِ. فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةَ أُمورٍ اَحَدُهَا اَنْ يَعْرِفَ غَلَّاتِ ٱلْمَدِينَةِ مَا هِيَ اَعْنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ اَوْ حَيَوَانٌ اَوْ مَعْدِنٌ اَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ اَوِ ٱثْنَانِ مِنْهَا كَيْمَا اِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنْهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ اَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا. وَٱلثَّانِي اَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَعْرِفَ اَصْنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْمَدِينَةِ فَاِنْ كَانَ فِيهَا اِنْسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ أَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ أَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ أَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَأَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ أَوِ ٱلسِّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ بِمَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ أَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ أَوْ فِي عِظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَأَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ ٱلْحَرْبِ. أَوْ يُعَرِّفُهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغرِهِ اَعنِي كَيفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَا هُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِزَةِ وَاَنْ يَعلَمَ حَالَ ٱلاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيهِ ٱلقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيسَ فِيمَا افضَتْ اِلَيهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفضَتْ اِلَيهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفظُ ٱلبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفظِ اَنْ يَعرِفَ كَيفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِى يَكُونُ حِفظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

اَعْنِي ٱلَّتِي ٱلْمَنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا اَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هٰذَا فَقَدْ يُمْكِنُهُ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحِفْظِ وَاَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بِٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَامَّا ٱلْإِشَارَةُ بِٱلْقُوتِ وَسَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلضَّرُورِيَّةِ ٱلَّتِي تَحْتَاجُهَا ٱلْمَدِينَةُ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ فِيهِ اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي ٱلْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمِ ٱلْحَاضِرُ ٱلْمَوْجُودُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَهَلْ اُدْخِلَ ٱلْكَافِي مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَاُحْرِزَ اَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تَخْرُجَ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ ٱلْفَاضِلُ عَنْ اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ . وَمَا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصُرَ عَنِ ٱلضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ مَشُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَحْفَظَ اَهْلَ مَدِينَتِهِ لِأَمْرَيْنِ: اَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي ٱلْمَالِ ٱلَّذِينَ مِنْ اَجْلِ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ . وَٱلْحَافِظُ لِلْمُدُنِ يَحْتَاجُ بِٱلْجُمْلَةِ اِلَى اَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهِ لَهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَسِيرٍ فِي اَمْرِ ٱلْمُدُنِ فَاِنَّ ٱلْمُدُنَ اِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَئِمُ وُجُودُهَا بِٱلسُّنَنِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ ٱلسُّنَنِ اَنْ يَعْرِفَ كَمْ اَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَاَيُّ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَاَيُّ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَاَيُّ نَاسٍ تَصْلُحُ بِهِمْ سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَاَيُّ نَاس لَا تَصْلُحُ بِهِمْ وَاَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي يَخَافُ اَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا ٱلْفَسَادُ عَلَى ٱلْمَدِينَةِ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ ٱلْاَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَاِمَّا مِنْ اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ فَاِنَّ سَائِرَ ٱلْمُدُنِ مَا عَدَا ٱلْمَدِينَةَ ٱلْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّنَنِ

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلْقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلِٱعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَا هُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجِهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاء وَٱلْاَوْجِهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاء يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاء وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاء ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْاَشْيَاء ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاء ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ اِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ. وَاِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱسْمُهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ ٱلْجَوَابِ ٱلَّذِي يُجِيبُ فِيهِ ٱلْآخَرُ. وَاِنَّمَا يُؤْثِرُهُ ٱلْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا ٱلِٱنْفِعَالِ ٱلْمَوْجُودِ لَهُ بِٱلطَّبْعِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ وَهٰذَا ٱلْخَيْرُ فِي ٱلْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ وَاَجْزَاءُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُفَصِّلَ اَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ اَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ اَضْدَادِهَا وَعَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوِ ٱلْاَنْفَعُ فِيهِ اَوِ ٱلضَّارَّةُ فِيهِ اَوِ ٱلْاَضَرُّ فِيهِ فَاِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمَشُورِيَّةُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(قَالَ) وَٱلَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلْاُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ مِثْلَ اَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّيْءَ ٱلصَّغِيرَ اِذَا اَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ ٱلشَّيْءَ ٱلْكَبِيرَ اِذَا اَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ لَا يَأْذَنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ وَفِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ اِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ ٱلشَّيْءُ اَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱخْتِلَالَ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَعُوقُهُ اَوْ تَتَجَاوَزُهُ اِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) فَاَمَّا صَلَاحُ ٱلْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ ٱلْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ ٱلسَّلَامَةِ وَٱلسَّعَةِ فِي ٱلْمَالِ وَحُسْنِ ٱلْحَالِ

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مع تَحْصِيلِ ٱلأَشْيَاء ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلأَشْيَاء وَٱلْفَاعِلَةِ لها .
وَقَدْ يَشْهَدُ اَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ اَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ اَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا اَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَاِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَاَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلاِخْوَانِ
وَٱلْاَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَاَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَاِنَّهُ هٰكَذَا اَحْرَى اَنْ يَكُونَ ٱلاِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْفِيا
اَعْنِي اِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلاِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ اَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْاَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلاِتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَاِنَّ بِهٰذِهِ ٱلاَشْيَاء تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْء فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَاِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَاَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ اَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ اَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا اَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عُدَدٍ وَاَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا اَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ اَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْاُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَاِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّاماً وَلَا رُؤَسَاءَ. فَامَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ اَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ اَنَّهُ يَكُونُ اَتَمَّ اِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا. وَيَنْبَغِي اَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي اُمَّةٍ اُمَّةٍ. وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ اَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْاَحْرَارُ مِنْ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ اِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ اَبَدًا اَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ. فَاِنَّهُ اِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَاِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَاِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ. وَاَمَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ. اَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِاَرْبَعٍ اِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ اَنْ تَكُونَ خُلُقُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ. وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ. وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ. وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْاَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ اَجْسَامِهِمْ. وَاَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ. وَاَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْاَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْاِنَاثِ. وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْاِنَاثِ اَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ. اَمَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْاَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ. وَامَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا انَ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي اوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً اِذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ ٱلصَقَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ انْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ اعْنِي فِي اوْلَادِهِمْ امْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ اوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْإِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ ارِسْطُو اِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ. فَامَّا اجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْأَثَاثِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ اِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَانْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا اَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ اوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْاِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ انْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَانْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ انْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ انْ اِذَا كَانَتْ ارْضًا الَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَاِنْ كَانَ فَرَسًا الَّا يَكُونَ جَمُوحًا. وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ انْ يَكُونَ اِلَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَامَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهوَ ٱستِعمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشتَرَطَ فِي ٱلغِنَى هٰذَا ٱلشَّرطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ ٱلغِنَى فِي ٱستِعمَالِ ٱلمَالِ أَحرَى مِنهُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱقتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلِاقتِنَاءَ هُو فَاعِلُ ٱلغِنَى وَأَمَّا ٱلِاستِعمَالُ فَهُوَ ٱلغِنَى بِعَينِهِ وَأَمَّا حُسنُ ٱلفِعلِ عَلَى ٱلرَّأيِ ٱلصَّوَابِ فَهوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلأَكثَرُ لَا مَحَالَةَ أَوِ ٱلأَخيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلكَيسِ وَٱلفِطنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلمُعتَنِي بِحُسنِ ٱلفِعلِ وَإِكرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِهِم هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلعَدلِ وَٱلحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلأَفعَالُ لَيسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيسَ يُكرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَستَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ أَعنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلإِكرَامِ وَٱلعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَستَوجِبُ ٱلكَرَامَةَ هِيَ ٱلعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيسَ ٱلتَّخلِيصُ مِنهَا بِهَيِّنٍ أَو إِفَادَتُهُمُ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي لَيسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهلِ . وَهٰذِهِ ٱلأَفعَالُ ٱلجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلغِنَى أَوِ ٱلسُّلطَانِ أَوْ مَا أَشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلإِنسَانِ بِهِ ٱلقُدرَةُ عَلَى أَمثَالِ هٰذِهِ ٱلأَفعَالِ وَقَدْ يُكرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلكَ ٱلحَالِ . فَكَانَ ٱلكَرَامَةُ عَلَى ٱلأَشيَاءِ ٱليَسِيرَةِ هِيَ بِٱلعَرَضِ أَيْ مِن جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلكَ ٱلأَشيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ

إِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ إِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ . فَإِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ إِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَإِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَإِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ . وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَزِيزِينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبَطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَإِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمُ ٱلْآلَامَ وَٱلِانْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِزَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أمرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذْقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا ٱلْخَمْسِ ٱللُّعَبِ

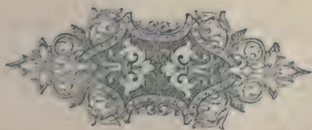
(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمْرِ مَعَ ٱلْأَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعْمَارُهُمْ مَعَ اَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ. وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَٱلْخَطِيبُ اِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِٱلشَّيْءِ ٱلظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمَّا كَثْرَةُ ٱلْخِلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ ٱلْاِنْسَانِ بِٱلْاِخْوَانِ وَذٰلِكَ اَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هُوَ ٱلْخَلِيلُ وَٱلصَّاحِبُ. وَهُوَ اَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَظُنُّ اَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ ٱلْآخَرَ لَا ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ. وَاِذَا كَانَتِ ٱلْخِلَّةُ وَٱلصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ ٱلْحَالِ بِٱلْاِخْوَانِ ٱلْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صَلَاحُ ٱلْجَدِّ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْاِتِّفَاقُ لِاِنْسَانٍ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ ٱلْخَيْرِ لَهُ. وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَاِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ. وَعِلَّةُ ٱلْاِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ ٱلصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونَ ٱلطَّبِيعَةَ وَهُوَ ٱلْاَكْثَرُ. فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ ٱلْاِتِّفَاقِ ٱلطَّبِيعِيِّ اَنْ يُولَدَ ٱلْاِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ ٱلْاُمُورَ ٱلْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ. فَاَمَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْاِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ ٱلْاِتِّفَاقَ ٱلطَّبِيعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُولَدَ صَحِيحًا. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْاِتِّفَاقَ ٱلصِّنَاعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ. وَاَمَّا ٱلْجَمَالُ وَٱلضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا ٱلْاِتِّفَاقُ ٱلصِّنَاعِيُّ وَٱلطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي سَبَبُهَا ٱلْجَدُّ ٱلَّذِي هُوَ حُسْنُ ٱلْاِتِّفَاقِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا. وَقَدْ يَكُونُ

ٱلْجَدُّ عِلَّةً لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلْإِضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحُ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يُرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ. قَدْ يُرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءِ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِمَعُونَةِ ٱللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ أَلفَاظَ ارِسْطَاطَالِيسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ إِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ . فَأَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ إِذًا بِٱلْإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا إِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلْاسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

بينَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيضًا. وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطْلِقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلِاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللّٰهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسهِ)

ٱلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِٱلْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَٱلشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ ٱلَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ ٱقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعَقْلُ . وَٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْإِرَادِيَّةِ . وَٱلَّتِي هِيَ بِٱلْقُوَّةِ مِثْلُ ٱلتَّهَيُّؤِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَٱلنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَٱلْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَٱلَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا ٱحْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ ٱلْبَتَّةَ فَكَٱلْعِلَاجِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَٱلرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتِ ٱلَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ ٱلْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَٱلْقُوَى وَٱلْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْأَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْأَفعَالِ وَمِنْهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنْهَا كَالْآلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيسَ بِعَرَضٍ فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ مَآلَ الْخَيْرَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنْهُ. وَأَمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ. وَأَمَّا فِي الْإِضَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَأَمَّا فِي الْأَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْأَنِيقِ الْبَهِجِ. وَأَمَّا فِي الْوَضْعِ فَكَالْقُعُودِ وَالْإِضْطِجَاعِ وَالْاِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَأَمَّا فِي الْمِلْكِ فَكَالْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَأَمَّا فِي الْاِنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ. وَأَمَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ الْأَمْرِ وَرَوَاجِ الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَأَرِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ إِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ الْبَخْتِ

(وَأَمَّا أَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

اَقسامٍ : (اَحدُهَا) فِي صِحَّةِ ٱلْبدَنِ وَلُطفِ ٱلْحوَاسّ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مِن ٱعْتِدَالِ ٱلْمزَاجِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ جَيّدَ ٱلسَّمعِ وَٱلْبصَرِ وَٱلشَّمّ وَٱلذَّوْقِ وَٱللَّمسِ . (وَٱلثَّانِي) فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْأَعوانِ وَاَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِاَنْ يَضَعَ ٱلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ ٱلْخيرَاتِ وَيُوَاسِيَ مِنْهُ اَهلَ ٱلْخيرَاتِ خَاصَّةً وَٱلْمُسْتَحِقِّينَ عَامَّةً وَيَعمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقّ ٱلثَّنَاءَ وَٱلْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ تَحْسُنَ اُحدُوثَتُهُ فِي ٱلنَّاسِ وَيُنْشَرَ ذِكْرُهُ بَيْنَ اَهلِ ٱلْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثِرُونَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ وَٱلْمَعْرُوفِ . (وَٱلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مُنْجِحًا فِي ٱلْأُمورِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱسْتَتَمَّ كُلَّ مَا رَوَّى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَٱلْخَامِسُ) اَنْ يَكُونَ جَيّدَ ٱلرَّأْيِ صَحِيحَ ٱلْفِكرِ سَلِيمَ ٱلِاعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ ٱلْخَطَإِ وَٱلزَّلَلِ جَيّدَ ٱلْمَشُورَةِ فِي ٱلْآرَاءِ . فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْأَقسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ .

(وَاَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ) قَبلَ هٰذَا ٱلرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورُسَ وَبُقْرَاطَ وَاَفلَاطُونَ وَاَشْبَاهِهِم فَإِنَّهُمْ اَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي ٱلنَّفسِ وَحْدَهَا وَلِذٰلِكَ لَمَّا قَسَمُوا ٱلسَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى ٱلنَّفسِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي اَوَّلِ ٱلْكِتَابِ (وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ) . وَاَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي ٱلسَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا اِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ . وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذٰلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ . وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يُحَقِّرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا . وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوُا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِـهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلُصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّـهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَـدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّـةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْـدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُـلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكِينِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيُعَمِّرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل. وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط. فاذا ما دام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية. فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها. واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

ٱلْأُمورِ ٱلدَّنِيئَةِ وَتِلْكَ مُحَصِّلَةٌ لِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذَا ٱلْأَنعامُ إِذا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ. وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهَشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاَحَبَّ ٱلِاقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاَقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلِانْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرَّبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَٱلْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلْاُولَى . . ثُمَّ اَعْلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلإِنْسَانُ هٰذَا ٱلِاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ أَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ وَكَذٰلِكَ أَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ ٱقْتِنَاءُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَأَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ تَكُونَ أَصْنَافُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طَرْحَ أمتِعَتِهِمْ شَرٌّ لكِنْ تُسْتَفَادُ مِنهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أعْظَمُ وَهُوَ ٱلعَطَبُ. وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا ارِسْطُو فَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا ٱنتِقَالًا وَيَعْنِي بِذٰلِكَ أَنَّهَا ٱنتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ أَوِ ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَٱلْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي ٱلْخَيْرِ فَإِنَّ ٱلْمُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو ٱلْأَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ ٱلْأَمْرَ فِي ذٰلِكَ. وَٱللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا. وَٱلْأُمُورُ ٱللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا ٱلْمُلْتَذُّ حَسَنَ ٱلْحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي ٱلْخَيْرِ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي ٱلْغَايَاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلْعَفَافَ وَكِبَرَ ٱلنَّفْسِ وَٱلنُّبْلَ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ وَٱلْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُخْتَارُ

فاعلاتُ اشياءَ أُخَرَ مِنْ صَلاحِ ٱلحالِ مِثلُ فاعلاتِ ٱللَّذَّةِ وفاعلاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلحسنةِ. ولذلكَ ما يُظَنُّ بِٱليسارِ انَّهُ خيرٌ إذْ كانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ ٱلأَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ احدُهُما ٱللَّذَّةُ وٱلآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلاحُ ٱلحالِ بِكَثْرَةِ ٱلإخوانِ قدْ يُوجَدُ فاعِلًا لِأَشياءَ كثيرَةٍ مِنَ ٱلخيراتِ وذلكَ إذا كانتِ ٱلصَّداقةُ ٱلَّتي بَيْنَهُما مِنْ اجلِ ٱلمحبَّةِ نفسِها لا انْ تكونَ ٱلمحبَّةُ بَيْنَهُما مِنْ اجلِ شَيْءٍ آخَرَ فإنَّ ٱلإخوانَ ٱلَّذينَ بهٰذهِ ٱلصِّفةِ هُمْ يفعلونَ ٱلكرامةَ وٱلتَّمجيدَ وغيرَ ذلكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْراهُما مِنَ ٱلخيراتِ وذلكَ يكونُ مِنْهُمْ بِٱلقولِ وٱلفعلِ فإنَّ ٱلأقوالَ وٱلأفعالَ ٱلَّتي تُفعَلُ بِها ٱلكرامةُ وٱلتَّمجيدُ وغيرُ ذلكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْراهُما هِيَ خَيْرٌ وَنافِعٌ

(قالَ) وَمِنَ ٱلنَّافعاتِ بِذاتِها ٱلمَلَكاتُ ٱلطَّبيعيَّةُ ٱلَّتي يكونُ ٱلإنسانُ بِها مُسْتَعِدًّا لِأَشياءَ حَسَنَةٍ مِثلِ ٱلذَّكاءِ وٱلحِفظِ وٱلتَّعلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلحركاتِ. وكذلكَ ٱلكمالاتُ مِثلُ ٱلعُلومِ وٱلصَّنائعِ وكذلكَ ٱلسِّيَرُ ٱلمحمودةُ وهٰذهِ كُلُّها مَعَ انَّها نافِعَةٌ في غيرِها هِيَ خَيْرٌ في نفسِها وإنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِها خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْراتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنفُسِها مُخْتارَةٌ لِذاتِها وٱلبُرْءُ ايضًا خَيْرٌ نافِعٌ

(قالَ) فَهٰذهِ هِيَ ٱلخيراتُ ٱلَّتي يُعتَرَفُ بِها وَيُجْتَمَعُ انَّها خيراتٌ وَنافِعاتٌ وَمَتى بُيِّنَ في شَيْءٍ مِنْها انَّها خَيْرٌ فذلكَ بَيانٌ لا عَلى طَريقِ ٱلمِراءِ وٱلمغالطةِ ٱلمُستعملةِ في هٰذهِ ٱلصِّناعةِ. وامَّا إذا بُيِّنَ في شَيْءٍ مِنْ اضدادِ هٰذهِ انَّها خَيْرٌ وفيها انَّها شَرٌّ فذلكَ يكونُ في هٰذهِ

ٱلصِنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاء اَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلشَّرَّ اِنَّمَا يَنفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ اَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِاَهْلِ مَدِينَةٍ مَا اَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِاَنَّهُمْ اِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَنَالَ مِنْهُمُ ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عَرَضَ لَهُمْ هٰذَا. وَاَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْاَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْاِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا اَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْاَعْدَاءِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِاَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْاَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْاَعْدَاءِ اِلَّا اَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْاِنْسَانِ اَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ اَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِاَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ اِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ اَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً اَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ اَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَاِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْاَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْاِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْاِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ اِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ اَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَظْفَرَ اَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَاِنَّهُمَا اِذَا ٱفْتَرَقَا فِي اِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلْاِفْتِرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

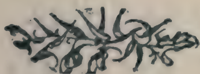
نافعًا للأعداء أيضًا. وأمّا ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدوّ. وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه. وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضًا أحد ما يكون به الشرّ نافعًا أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلًا بعدوّه. فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذٍ يهوى العدوُّ الواردُ ضدّ ما يهواه كلُّ واحدٍ من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوُّ من خارج. وذلك أنّ كلّ واحدٍ من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج. والعدوُّ الواردُ يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكّدها. وارسطو يقول: ولذلك كثيرًا ما تنفق النفقاتُ العظيمةُ وتُفعل الأفعالُ الكثيرةُ في مثل هذا الخير الذي يُدفع به الشرُّ العظيمُ وإنّما تطيب النفسُ بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتّى كأنّها إذا وُجدت هذه الأشياء وُجدت الغاية. وقد يكون الشرّ المفرطُ النازلُ بالعدوّ أيضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوُّ. مثل ما حكى ارسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء لليونانيّين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرةً وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا ٱلشَّيْءِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلِاصْطِنَاعَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْافْعَالِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ ٱلْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ ٱلْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ ٱلنَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ ٱلْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ ٱلْاِنْسَانِ ٱلشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ ٱلْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُومِيرُوشَ مَعَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِٱلْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ ٱلْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ ٱلتَّعْظِيمِ حَتَّى ٱعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْاَوَّلَ لِجَمِيعِ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَفِعْلَ ٱلشَّرِّ بِٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْخَيْرِ بِٱلْاَصْدِقَاءِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ. وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ بِهِ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ ٱلْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يَظُنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ ٱلْفِعْلُ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَهُوَ ٱلسَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ اَجلِ خَوْفٍ اِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَاِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنقَطَعَتْ وَاِذَا ٱنقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعلِ اَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعظُمُ مَوقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفعُهَا . وَاَمَا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعظُمُ مَوقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبعِ مِنْ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي اُسْدِيَتْ اِلَيْهِ اِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَاِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَاِمَّا لِاَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيسَ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي اَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِاَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلاَحْوَالِ لِاَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَاَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ اِنَّمَا يَشْتَهِي اِمَا اَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ اِلَيْهِ وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ اَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ اِلَيْهِ . فَاِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ اِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَاِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَاِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيهِ اَنَّهُ لَيسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ اَنْقَصُ اَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

ازيد وسواء وقعت مكافاته بما هو انقص او بما هو مساوٍ. او بما هو شبيه فهي المكافاة الجميلة لان مكافاته بالانقص لم تكن منه باختيار لذلك بل لانه لم يتيسر ذلك فاذا اتفق ان يكون مع هذا ذلك الفضل مما يسر به الاصدقاء اعني اصدقاء المكافئ بالفعل ويسوء اعداءه ويكون مع هذا متحببا منه عند الجمهور. وذلك بالاضافة الى من صدر عنه عظيم موقعه من المصطنع اليه وبخاصة اذا كانت الصنيعة مما توافق شهوة المصطنع اليه مثل ان يكافئ او يبدأ محب الكرامة بالكرامة ومحب المال بالمال ومحب الغلبة بالغلبة فان هذه الصنيعة ليست هي لذيذة فقط عند الذي تصطنع اليه او يكافأ بها بل هي عنده فاضلة وكذلك الامر في سائر اصناف الخيرات وانما تكون افعال الصانع والمكافاة على المبتدئ والمكافئ افعالا سهلة يمكن ان يداوموا عليها متى كانوا باستعدادهم الطبيعي مهيئين لتلك الافعال وكانت قد حصلت لهم الملكة التي بها تصدر منهم تلك الافعال ومن الصنائع اليسيرة التي يظن بها انها ليس تنقص المصطنع شيئا الاصطناع بالتأديب والموعظة



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ اَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ اَحْيَانًا بِاَنَّ ٱلْاَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي اَنَّ هَا هُنَا شَيْئًا هُوَ اَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ اَنْ يُبَيِّنَ بِهَا اَنَّ ٱلْاَمْرَ اَنْفَعُ وَاَفْضَلُ. فَمِنْهَا اَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْاَشْيَاءِ فَهُوَ اَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْبَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْثَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ اَكْثَرَ اَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ وَاَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَاَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا اَوْ اَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمعَ هـذهِ ٱلصِّفَاتِ إنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنْفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلأَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلإِنَاثِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلْعَظِيمِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ. فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ. فَٱلْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَأَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تَجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلَانًا اوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى ٱلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ ٱلَّذِي
اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ
هُوَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ ٱلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ ٱلْفَاعِلُ فِيهِ
اَعْظَمَ مِنَ ٱلْغَايَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ اَحَقُّ بِٱلشُّكْرِ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ
مِنْ فُلَانٍ لِاَنَّ فُلَانًا هُوَ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَلَوْلَا
اِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا ٱلْمَوْضِعَيْنِ
مَا قَبْلَ ٱلْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ ٱلْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلَّذِي وُجُودُهُ
اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلذَّهَبُ
اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ ٱلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ
مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا
يُقَالُ اِنَّ ٱلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا
هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ
وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا
سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ اِلَيْهِ.
وَاَيْضًا ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا ٱلَّذِي عَدَمُهُ
اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ ٱلْاَعْظَمِ
وَٱلْاَقَلِّ عِظَمُ ٱلْمُقَايَسَةِ فِي ٱلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا
خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْغَايَاتِ وَٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ
ٱلْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ ٱلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ
شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْاَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضاً فانّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فانّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لانّ نسبة الافعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانّه ان كان البصر آثر من الشمّ فانّ الابصار آثر من الشمّ وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتيّة فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتّفاق فانّ العظيم يكون الاتّفاق الذي يعرض له عظيماً وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني انّ الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضاً ان يحبّ الانسان صاحب المال افضل من ان يحبّ المال لانّ حبّ الانسان افضل من حبّ المال. وايضاً فانّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك انّ شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضاً عكس هذا وهو انّ ما هو افضل فشهوته افضل مثل انّ الحكمة افضل من الصحّة فشهوتها افضل من شهوة الصحّة. وايضاً فانّ العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انّه لما كانت العلوم العلميّة افضل من العمليّة كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو انّ التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك انّ الوقوف على الحقّ لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنائعُ ٱلعِلْمِيَّةُ اَفضلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّـةِ واِنَّما كانَا هٰذانِ ٱلمَوْضِعانِ مُتلازِمَينِ لِاَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّناعَةِ اِلَى ٱلصِّناعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعلِهَا اِلى فِعلِها

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ اَوِ ٱلاَكْثَرُ اَوْ ذَوُو ٱلاَلبابِ وَٱلاَخيارُ ٱلصَّالِحونَ اَنَّهُ خَيْرٌ وافضلُ فهُوَ افضلُ بِاِطْلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ اِذَا كَانَ حُكمُهُمْ فِي ٱلاَشْياءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱستَفادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَاِنَّ ذَوِي ٱلاَلبابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ ايِّ شَيْءٍ هِيَ وَاِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيـهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيْرِ مِنْ اَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ اِنَّمَا يُرادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيْرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَةِ اَعْنِي ٱللَّبِيبَةَ فَاِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطلَقٌ اَوْ خَيْرٌ اَفضَـلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ اَنَّ ٱلشَّجاعَةَ وَٱلاَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ اِيَّاهَا. وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِٱلاِضَافَةِ اِلَى اِنسانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ اَنَّهُ اَنْ يُجارَ عَلَيهِ اَفضَلُ مِنْ اَنْ يَجُورَ هُوَ فَاِنَّ هٰذَا ٱلخَيْرَ لَا يُدرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَاِنَّمَـا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدْلِ وَٱلفَضْلِ. وَاَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيرَاتِ مَعَـهُ اَكْثَرَ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ يَبْتَـدِرُونَ اِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمْ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ اَجْلِ ٱللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ اجلِ شَيْءٍ آخَرَ غَـيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ اَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُلِذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ أَيضاً كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ . وَمَا ٱخْتَارَهُ أَيضاً ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ أَعْنِي ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ أَفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا ٱخْتَارَهُ أَيضاً ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ . وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ أُصُولُ ٱلْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ أَيْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ أَحْكَاماً مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ . وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا أَشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ أَنْ يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ أَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْأُوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ أَنْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأُوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِىءِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ أَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا أَرِسْطُو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى . وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْأَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ أَفْضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْأَخْذِ قَدْ يُخَيِّلُ هَوَاناً وَنَقْصاً فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وَقِلَّةَ قَبُولٍ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا. وَذٰلِكَ اَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْاَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ اَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ اَصْلًا شَيْئًا اَوْ اِنَّمَا اَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذٰلِكَ اَنَّ اَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ اُخْرَى وَذٰلِكَ اَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًا فِي نَفْسِهِ وَٱلْاَقَلُّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ اَكْثَرَ وَهُمْ اَقَلُّ وُجُودًا وَاَعَزُّ لِاَنَّهُمْ اِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا اَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ اِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ اَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِاَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ اَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ اَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْاَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ اَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ اَعْظَمُ لِاَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ اَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ. وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ اَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْاَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ اَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ اَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلفَضَائِلِ اَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلفَضْلِ هُمْ اَيضًا افضـلُ وَاَعظَمُ . فَهَؤُلَاءِ هُمْ اَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ اِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَـيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ اَفضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ اِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا اَرَادَ اُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ اَنْ يُعظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ اَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْاَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ اَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعظَمُ وَهُوَ عَـكْسُ . هٰذَا اَعْنِي اَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْـكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْاِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْاِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّـا كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْاَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْاَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا اَفضَـلُ كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْـكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً اِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا اَوْ فِي ٱلْاَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا اَيضًا اَوْ فِي ٱلْاَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْـلُ وُجُودِ ٱلْاِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا اَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ اَنْ يُفْعَـلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ اَوْ تَـكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِـلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ اَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْـلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَاَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَاَيضًا فَاِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ اَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ اَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَاَيضًا فَاِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ اِلَيْهِ اَشَدُّ هُوَ اَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ اَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَاِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا اَضَرُّ . وَاَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَمْرَيْنِ اَقْرَبَ اِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ اَفْضَلُ . وَاَيضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ اَفْضَلُ فَاِنَّ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ اَعْمَارِهِمْ هِيَ اَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَاَيضًا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ اَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا اَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَاَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ اَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ اَنَّهَا ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ اَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ اَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِاَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ اَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَاَمَّا حُسْنُ ٱلِانْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلقَابِلُ لَهُ . وَايضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَٱلْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤَثَّرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤَثَّرٌ لِلْغَيْرِ . وَايضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي اشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ انْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ اعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغْدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ انَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ اعْنِي انَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلِانْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ اعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِأَمْرِئٍ جَعَلَاهُ اعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهْلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ انَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا انَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ انْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ انَّهُ أَحْرَى انْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ فِيهَا بِٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِٱلنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِٱلْمِثَالَاتِ ٱلْمَأْخُوذَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ ٱلْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ ٱلنَّفْعُ أَوِ ٱلضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقِصَصِ وَٱلْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يُثْبَتُ بِهَا أَنَّ ٱلشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةِ بِٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِشَارَةَ بِٱلسُّنَنِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْإِقْنَاعَ ٱلتَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلَاصُ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقِوَامُهَا. وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلْعَادِلَةُ أَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلْعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلْأَوَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ أَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلْعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ. وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَدْلُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا. وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخِسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ. وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ. فَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِأَدَاءِ ٱلْإِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْأُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ أَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ. وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلْإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ اهلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ اهلَ فَضَائِلَ وَاقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَاهلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ انْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ اوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلْإِسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَافعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ افعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ ابُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَامَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ انْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَالَّا يَنقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنبَغِي انْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا. ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي. وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ. وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلأُمورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلِاخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ اجلِ أَنَّهُ يَعرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحانِيُّونَ بِٱلفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ ٱلفَضِيلَةِ وَلَيسَ يَعرِضُ هٰذَا فِي مَدحِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ ٱلأَشيَاءِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ. اَعنِي اَنهَا تُمدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنبَغِي اَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنهَا ٱلمُقَدَّماتُ فِي ٱلمَدْحِ بِٱلفَضَائِلِ وَبِغَيْرِ ٱلفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلقَوْلُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: اِنَّ ٱلجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُختَارُ مِنْ اجلِ نَفسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ اَنَّهُ خَيرٌ. وَاِذَا كَانَ ٱلجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِاَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَٱلفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعلٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقْدِيرِ اَوْ يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ خَيْرٌ اَعْنِي ٱلحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ وَٱلفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلقَدْرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلغَايَةِ عَنْهُ. فَاَمَّا اَجزَاءُ ٱلفَضِيلَةِ فَٱلبِرُّ اَيِ ٱلعَدْلُ ٱلعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلمُرُوءَةُ وَٱلعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلهِمَّةِ وَٱلحِلْمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلحِكْمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهَا تُفْعَلُ فِي اُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفْعَلُ فِي اُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ اَعظَمَ عِندَ قَوْمٍ مِنْهَا عِندَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقْتِ ٱلحَرْبِ مِنْهَا فِي وَقْتِ ٱلسِّلْمِ. وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلعَدْلِ فَمُؤْثَرَةٌ فِي ٱلسِّلْمِ وَٱلحَرْبِ

جَمِيعًا. وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلْمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمَحَاوِيجِ. وَإِنَّمَا تَنْفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوءَةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ ٱلسَّخَاءِ. فَأَمَّا ٱلْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ. وَٱلْجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي ٱلسُّنَّةِ. وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلْأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ خَادِمًا لِلسُّنَّةِ. وَأَمَّا ٱلْجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ فِي شَهَوَاتِ ٱلْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ. وَٱلْفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلْجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ. وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا كِبَرُ ٱلْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْعَظِيمَةِ وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ. وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا. وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ صِلَاحِ ٱلْحَالِ. فَهٰذَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلْفَضِيلَةَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلْفَضَائِلِ مِثْلِ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا أَعْنِي ٱلْأَعْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

لِلفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلْآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلْفَضَائِلِ وَأَعْرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَأَفعالُهَا إِنَّمَا يُمْدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفعَالِ ٱلْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَعرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلأَفعَالِ وَٱلأَعرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ أَفعَالُ ٱلشُّجعَانِ فِي ٱلْحَربِ أَوْ مَنْ فَعلَ فِي ٱلْحَربِ فِعلَهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذٰلِكَ ٱلأَعرَاضُ ٱلَّتِي تَلحَقُ ٱلشُّجعَانَ مِمَّا يُمدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا فِي وَقتٍ مَا بَذلُ ٱلْمَالِ فَإِنَّهُ فِعلٌ مِنْ أَفعَالِ ٱلسَّخَاءِ لٰكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْفِعلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلأَعرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا ٱنفِعَالُ ٱلْمَرْءِ عَنِ ٱلعَدلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذٰلِكَ أَنَّ فِعلَ ٱلعَدلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا ٱلِانفِعَالُ عَنْهُ فَلَيسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيمٌ. وَبِٱلْجُملَةِ فَأَفعَالُ ٱلْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقدِيرَ ٱلعَدلِ وَمِمَّا يُمدَحُ بِهَا ٱلأَفعَالُ ٱلعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةَ خَيرٌ مِنَ ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْمَالُ. وَلِذٰلِكَ إِذَا كَانَ فِعلٌ يُجَازَى عَلَيهِ بِٱلأَمرَينِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِنْ أَجلِ ٱلْكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفعَلُهُ ٱلْمَرْءُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجلِ نَفسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعلُ ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيرَاتٌ بِإِطلَاقٍ كَذٰلِكَ مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وَٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلفَاعِلِ يُمدَحُ بِهَا أَيضًا. مِثلُ فِعلِ ٱلعَدلِ فَإِنَّ ٱلعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَستَضِرُّ بِهِ.

وَٱلأفعالُ ٱلّتي تختصُّ بإِكرامِ ٱلأمواتِ ممدوحةٌ لِأَنَّ ٱلأفعالَ ٱلّتي تكونُ للأحياءِ إنّما يقصِدُ منها ٱلمرءُ أكثرَ ذلكَ منفعةَ نفسِهِ. وبالجملةِ فكلُّ فعلٍ كانَ ٱلمقصودُ بهِ ٱلغيرَ ولم يكنْ ينتفعُ بهِ ٱلفاعلُ لهُ أو كانَ يلحقُهُ منهُ ضررٌ فهو ممدوحٌ بهِ. وٱلفعلُ ٱلّذي يكونُ إلى ٱلمحسنينَ إلى ٱلنّاسِ ممدوحٌ بهِ أيضًا لأنَّ هذا هوَ عدلٌ إذ كانَ ليسَ ينتفعُ بهِ ٱلفاعلُ لهُ. وممّا يدلُّ على أنَّ ٱلإنسانَ ذو فضيلةٍ أنْ لا يفعلَ ٱلأفعالَ ٱلّتي يفتضحُ بها أهلُ ٱلفواحشِ وأنْ يؤدِّبهمْ بالقولِ وٱلفعلِ. وكذلكَ نصرةُ ذوي ٱلفضائلِ ومحمدتُهم ممّا يُمدَحُ بهِ. وٱلخجلُ عندَ ذِكرِ ٱلقبائحِ ممّا قد يدلُّ على ٱلفضيلةِ لأنّهُ يُظَنُّ بهِ أنَّ ٱلحياءَ يمنعُهُ عنْ إتيانِ تلكَ ٱلرّذيلةِ. وقد يكونُ أيضًا عدمُ ٱلحياءِ عندَ ذِكرِ ٱلفواحشِ علامةً يُمدَحُ بها. وذلكَ أنّهُ قد يُظَنُّ أنَّ ٱلإنسانَ إنّما يستحيي عندَ ذِكرِ ٱلقبائحِ إذا كانَ قد فعلَها أو نالَها أو هوَ مُزمِعٌ أنْ يفعلَها. مِثلُ ما حكى أرسطو أنّهُ عرضَ لأمرأةٍ مشهورةٍ بالحكمةِ عندَهم وذلكَ أنَّ إنسانًا مشهورًا عرَّضَ لها بالقبيحِ بأنْ قالَ لها: إنّي أُريدُ أنْ أقولَ قولًا يمنعُني عنهُ ٱلحياءُ فخلَمتْ عنهُ ولم تجبْهُ بقولٍ قبيحٍ ولم يُدرِكْها مِنْ ذلكَ تألُّمٌ ولا ٱنفعالٌ لأنّها كانتْ ترى لمكانِ فضيلتِها أنَّ أحدًا لا يُعرِّضُ لها لا بِمثالٍ ولا بِقولٍ كلّيٍّ (وهما صِنفا ٱلتّعريضِ). لكنّها في تلكَ ٱلحالِ جعلتْ تنصُّ ٱلفضائلَ وتمدحُ أهلَها وتتعصّبُ لهمْ وتحامي عنهمْ. وكانَ أيضًا مَنْ معَها لمْ يأنفوا

اَيضًا لِقَوْلِ ذٰلِكَ وَلَا لِتَعْرِيضِــهِ لِعِلْمِهِمْ اَنَّ مِثْلَهَا لَا يُتَّهَمُ بِمِثْلِ هٰــذَا

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلتَّعَصُّبُ لِلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُكَسِّبُ ٱلمَجْــدَ وَٱلمُحَامَاةُ عَنْهَا قَدْ تَجْعَــلُ ٱلْمُتَعَصِّبَ لَهَا وَٱلمُحَامِيَ عَنْهَا مِنْ اَهْلِ ٱلفَضَائِلِ ٱلَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْاِنْسَانِ اِلَّا بِمُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلِ ٱلعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَــةِ وَغَيْرِهِمَا. وَذٰلِكَ اِذَا صَارَتْ لَهُ مَلَـكَةٌ بِتَرْدَادِ فِعْلِهَا وَٱلتَّعَصُّبِ لَهَا وَٱلمُحَامَاةِ عَنْهَا كَمَا عَرَضَ لِهٰــذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي ٱقْتَصَصْنَا ذِكْرَهَا مَعَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ اَمْثَالَ هٰــذِهِ ٱلْاَفْعَالِ قَدْ يَصِيرُ بِهَا ٱلْاِنْسَانُ مِنْ اَهْلِ ٱلْفَضَائِــلِ ٱلَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْاِنْسَانِ اِلَّا بِمُجَاهَدَةٍ كَبِيرَةٍ

(قَالَ) وَٱلْاِنْعَامُ عَلَى ٱلْغَيْرِ اِذَا لَمْ يَسْتَفِدِ ٱلْمُنْعِمُ مِنْــهُ شَيْئًا هُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَلِذٰلِكَ مَا كَانَ ٱلعَدْلُ وَٱلْبِرُّ يُمْدَحُ بِهِمَا ٱلْاِنْسَانُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهُمَا نَافِعَانِ كَمَا يُمْدَحُ بِهِمَا مِنْ جِهَةِ مَا هُمَا جَمِيلَانِ. وَٱلِانْتِقَامُ اَيضًا مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَاَلَّا يُرْضَى عَنْهُمْ فِي حَالٍ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. فَاِنَّ ٱلِانْتِقَامَ مِنْهُمْ هُوَ جَزَاءٌ وَٱلْجَزَاءُ عَدْلٌ وَٱلعَدْلُ جَمِيلٌ. وَمَحَبَّــةُ ٱلغَلَبَةِ اَيضًا وَمَحَبَّةُ ٱلْـكَرَامَةِ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِمَا لِاَنَّهُمَا عَــلَامَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى اِيثَارِ ٱلفَضَائِلِ لَا لِمَكَانِ ٱكْتِسَابِ مَالٍ بِهِمَا. اَمَّا مَحَبَّةُ ٱلغَلَبَةِ فَتَدُلُّ عَلَى اِيثَارِ ٱلشَّجَاعَةِ. وَاَمَّا مَحَبَّــةُ ٱلْـكَرَامَةِ فَعَلَى اِيثَارِ جَمِيعِ ٱلفَضَائِلِ وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلفَضَائِلُ ٱلاَثِيرَةُ ٱلْمُخْتَارَةُ هِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ يَقْصِدُ بِهَا مُقْتَنِيهَا اِلَى ٱكْتِسَابِ مَالٍ. لِاَنَّ ذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا اَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا اَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَاِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ اِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ اَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِاَنَّ ٱلْمُوفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِاَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْاَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ اَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ اَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْاِنْسَانُ اِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ ٱلْاُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ اَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِاَنْ يُوهِمَ اَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ اَجْلِ اَنَّ تِلْكَ ٱلْاَفْعَالَ هِيَ مِنْ اَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ اَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ عَرَضَ اَنْ وُجِدَ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ اَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ اَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ اَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ اَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ اَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ اَنَّهُ عَفِيفٌ اِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمْ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثُرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثُرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمْدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمْدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمْدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَنْجَحَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعِ يُمْدَحُ ٱلنَّجَحُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الروية . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الروية . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما نمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكرا مطلقا امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

إِنَّـهُ لَيس يَنبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضلُ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلإِنسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِـهِ وَٱختِيَارِهِ. فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا. فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِٱلبَخْتِ وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱختِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدحِ. وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنبَغِي أَنْ تُطلَبَ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ. وَٱلأَشيَاءُ ٱلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمكِنُ أَنْ تُستَعمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخرَى. فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُختَلِفَةٌ فَإِنَّ قَومًا يَرَونَ أَنَّ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكتَسَبٍ لِلإِنسَانِ. وَقَومٌ يَرَونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعرِضُ لَـهُ وَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلِاختِيَارِ فَٱلمَمدُوحُ مِنهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذمُومُ مِنهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنبَغِي أَنْ يُستَعمَلَ فِي ٱلمَدحِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعظِيمُ ٱلشَّيءِ وَتَنمِيَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي ٱلشَّيءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ. وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ. أَوْ إِنَّهُ وَحدَهُ فَعَلَ هٰذَا. أَوْ إِنَّهُ فَعَـلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ. أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعـلًا كَبِيرًا. فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعلِ. وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعسُرُ فِعـلُهُ. وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنسَانًا

انساناً. ثم انه ان كان الفاعل ممن يقتدى به في افعاله واقواله مراراً كثيرة فان فعله عظيم كما قيل: انكم ايها الرهط ائمة يقتدى بكم. والافعال التي يقتدى بها ليست هي الافعال التي تكون بالاتفاق بل الافعال التي تكون عن المشيئة والروية. وهذه الاشياء قد يمكن ان تدخل في المشورة اعني الاشياء التي تعظم الشيء مثل ان يشار على المرء ان يتشبه بالممدوح الاول في ذلك الجنس او يتشبه به في المدح او يشار عليه ان يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع احد في حمدهم. مثل الذين يمدحون في الاسواق او يتشبه بهم في المدح. ومما يعظم الممدوحين ان يقاسوا بالذين يفعلون اضداد افعالهم وذلك عند ذكر افعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم ان يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا انفسهم معهم دائماً فقد ينبغي ان يشبهوا بأولائك وان يجروا مجراهم في المدح وان لم يكونوا وصلوا مراتبهم. فان فضائلهم في نمو دائم. ومقايسة الانسان نفسه مع غيره لا تصح الا من الرجل الفاضل لموضع حب الانسان لنفسه فهو يرى نقائصه اقل من نقائص غيره وان كانت اعظم. ويرى فضائله اكثر وان كانت اصغر ولذلك ليس كل احد يستطيع المقايسة وانما يستطيعها الفضلاء من الناس مثل ما حكى ارسطو عن سقراط انه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الاحكام

عَلَى اَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بمَعْنَى اَنَّهُ كَانَ يَنظُرُ بينَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَاِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَاِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ اَنْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ اَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اَعْنِي ٱلَّذِين فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ اَنَّ ٱلَّذِينَ اَجْهَدُوا اَنْفُسَهُمْ فِي اَنْ يَبْلُغُوا مبلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ تَعْظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدْحِ. فَاِنَّ ٱلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشْرِيفُ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي اِذَا اُرِيدَ ٱلتَّعْظِيمُ بِٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ فَاِنَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِاَجْنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ اَنَّ ٱلتَّعْظِيمَ وَاِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِاَجْنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ. لِاَنَّهُ اِنَّمَا يُمْدَحُ ٱلْاِنْسَانُ اَوْ يُذَمُّ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ اَخَصُّ بِٱلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ اَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَاَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِاَنَّ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَاِعْطَاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِاَنْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَاَمَّا مَعْرِفَةُ ٱلْعَدْلِ وَٱلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدْحِ

وَٱلذَّمِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ اَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ اَوِ ٱلذَّمُّ اَعْنِي اَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْاَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْاَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ اَضْدَادِهَا اِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

اِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا اِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْاِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ اِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا اُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَاِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَنَفَقَهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْـكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَـةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيـهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْـكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَـةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَـةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَـةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

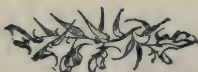
البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْـكَلَامِ وَتُعْتَبَرَ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُـهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْـرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيـدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَـكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيـدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَـكُونَ ٱلْـكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيـدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَـةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَـةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي اوصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عدلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ اِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلاَقْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلاَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ اِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي اَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِاَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي اَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا اَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَاِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلاَوَّلِ وَلَهُ اَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِي بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلاَوَّلِ وَمِنْهَا اَنَّ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِي فَاِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَاِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلاَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي اَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ اَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ اِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِٱنْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ اِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهَنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنظُومَ ٱبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ إِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ. وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلِٱقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ إِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمُرَوِّي إِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جَرِيحٍ:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى مُنْضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ إِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِيُّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ إِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِيَ أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلِٱنْتِجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ.

فَقَالَ: تَلْخِيصُ ٱلْمَعَانِي رِفْقٌ وَٱسْتِعَانَةٌ بِٱلْغَرِيبِ عَجْزٌ وَٱلتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَٱلنَّظَرُ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ ٱللِّحْيَةِ هُلْكٌ وَٱلْخُرُوجُ مِمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ إِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ ٱلْخِطَابَةِ ٱلطَّبْعُ وَعَمُودُهَا ٱلدُّرْبَةُ وَحَلْيُهَا ٱلْإِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَخَيُّرُ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقِلَّةِ ٱلْاِسْتِكْرَاهِ وَأَنْشَدَنِي بَيْتًا فِي خُطْبَةِ إِيَادِ

يُومُونَ بِٱللَّفْظِ ٱلْخَفِيِّ وَتَارَةً   رَمْيَ ٱلْمَلَاحِظِ خِيفَةَ ٱلرُّقَبَاءِ

(وَقَالَ) ٱبْنُ ٱلْأَعْرَابِي قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا ٱلْإِيجَازُ عِنْدَكَ قَالَ حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ لَهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتِ كَلَامِي قَالَتْ إِلَى أَنْ تُفْهِمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ مَلَّهُ مَنْ فَهِمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد
وزهر الاداب للحصري بتصرُّف)

قَالَ ٱبْنُ ٱلْجَوْزِيِّ فِي ٱلْمُنْتَخَبِ. لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَوَاعِظُ مَنْدُوبًا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ لِعُمَّالِهِ تَعَاهَدُوا ٱلنَّاسَ بِٱلتَّذْكِرَةِ. وَلِأَنَّ أَدْوَاءَ ٱلْقُلُوبِ تَفْتَقِرُ إِلَى أَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ ٱلْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ أَلَّفْتُ فِي هٰذَا

ٱلفَنِّ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ يَقْتَنِعُونَ مِنَ ٱلْمَوَاعِظِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زَخْرَفَةِ نُطْقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَوَاعِظَ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْفُقَهَاءُ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ يَتَنَاظَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسِ عِلَّةٍ أَوْ قِيَاسِ شَبَهٍ وَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَسَامِي لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرْضَاةِ ٱلْأَوَائِلِ وَلِذٰلِكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمَذْكُورِينَ مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَسْجِيعِ وَعْظٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ ٱلْجَوَادِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِمَثَابَةِ جَمْعِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَثَنَّى بِهِ عُثْمَانُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَذِنَ لِتَمِيمٍ ٱلدَّارِي أَنْ يَقُصَّ وَمِثْلُ هٰذِهِ لَا تُذَمُّ لِكَوْنِهَا ٱبْتُدِعَتْ إِذْ لَيْسَتْ تُخَارِجُ عَنِ ٱلْأَصْلِ ٱلْمَشْرُوعِ وَقَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلْقَصَصُ بِدْعَةٌ كَمْ مِنْ أَخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٍ تُسْتَجَابُ

قَالَ بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ إِنَّ ٱلْوَعْظَ حَبْلُ ٱللهِ ٱلْمَمْدُودُ وَعَهْدُهُ ٱلْمَعْهُودُ وَظِلُّهُ ٱلْعَمِيمُ وَسِرَاطُهُ ٱلْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ ٱلْكُبْرَى وَمَحَجَّتُهُ ٱلْوُسْطَى وَهُوَ ٱلْوَاضِحُ سَبِيلُهُ ٱلرَّاشِدُ دَلِيلُهُ ٱلَّذِي مَنِ ٱسْتَضَاءَ بِمَصَابِيحِهِ أَبْصَرَ وَنَجَا وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهَوَى حُجَّةُ ٱللهِ وَعَهْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ ٱلْجَاهِلُ وَيَعْمَلُ ٱلْعَالِمُ ٱلْعَامِلُ وَيَنْتَبِهُ ٱلسَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ ٱللَّاهِي بَشِيرُ ٱلثَّوَابِ وَنَذِيرُ ٱلْعِقَابِ وَشِفَاءُ ٱلصُّدُورِ وَجَلَاءُ ٱلْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ أَنَّهُ يُقْرَأُ دَائِمًا وَيُكْتَبُ وَيُمْلَى وَلَا يُمَلُّ مَا أَهْوَنَ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَنْ جَعَلَ ٱلدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ ٱلْمَوْتَ أَمَامَهُ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْحِكْمَةُ مُوقِظَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَمُنْقِذَةٌ لِلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ وَٱلْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي ٱلظُّلْمَةِ وَأُنسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ وَوُصْلَةٌ فِي ٱلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقَصِّرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ أَنْطَقَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرَّفَ بِهِ ٱلْوَضِيعَ وَأَعَزَّ بِهِ ٱلذَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ ٱلْمَسُودَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلِٱبْتِذَالِ وَيَذْكُو عَلَى ٱلِٱنْفَاقِ لِلهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ ٱلِٱسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلْكَاً أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخْبِيرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْوِنَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَتْوِلَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِٱعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ‏ ‏ حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: اِقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : اَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَاَعْمَالٌ تُخَالِفُ . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ اُمِرْنَا بِٱلْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ ٱلْمَوْعِظَةِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَجُنُوحَ ٱلنَّفْسِ اِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَٱلشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَٱلْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ اِلَّا اَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ ٱلْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ ٱلْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ ٱلتَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ ٱلْاِنَابَةِ (قَالَ ٱلنَّبِيُّ) حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ يُرِيدُ اَنَّ ٱلطَّرِيقَ اِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱحْتِمَالُ ٱلْمَكْرُوهِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلطَّرِيقَ اِلَى ٱلنَّارِ رُكُوبُ ٱلشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ ٱلْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ اِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) ٱلْكَلِمَةُ اِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي ٱلْقَلْبِ وَاِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ ٱلْآذَانَ . وَقَالُوا مَا اَحْسَنَ ٱلتَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمَلِكِ اَحْسَنُ . وَمَا اَحْسَنَ ٱلدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ ٱلْفَتَاةِ اَحْسَنُ وَمَا اَحْسَنَ ٱلْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ ٱلْفَاضِلِ ٱلتَّقِيِّ اَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) اَيُّهَا ٱلنَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا اَنْ تَنْتَفِعُوا بِاَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَاِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي

يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبُهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى ... وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

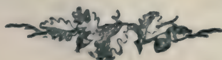
وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

حَقِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً   وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضاً وَإِنْ لَمْ تُحْفَرِ
وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ   وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَاناً وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحَجَّبَةَ بَيَاناً وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِاضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ ذَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأَنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ اِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا اَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ اَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَاُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَاِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ اَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ اَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ اَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا اَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَاَحَاطُوا بِاَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ اَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ اَمْرًا عَسِرًا اِذْ كَانَ ٱلْاَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ اَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلٰكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا اَوْ غَلَبَتْ اِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ اُمَّةٍ تُفَرِّغُ اَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذٰلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ اَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ اِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا اَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَاَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ اِنَّ ٱلدِّينَ اَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ اِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلٰكِنَّ ٱلْاِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ اَلَا تَرَى اِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ اَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْأَحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ. وَإِلَى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ. لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ. إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ. فَغَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ. أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ أَلْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادُ مِنْهَا. كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ الْمُعْجِبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ. فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدتُّ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدتُّ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ ٱقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا ... اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا تَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذَٰلِكَ لِكَثْرَةِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْاَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَلَا تَكُونُ ٱلْاُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ . وَاِنْ قُلْتَ : اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ : هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ تَنْظُرُ . اَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْاَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللّٰهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْاُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْاُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِاِدْخَالِهِ اَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِاَغْرَاضٍ شَتَّى . مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ . وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ اِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا . وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ اَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى اِذَا وَقَعَتْ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَاَمْرًا كَافِيًا فِي اِنْقَاذِ اَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ اَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ . وَاَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ اِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى اُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا اِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْاَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ . فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ اِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْاُمَّةِ . ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا . وَخَرَجَ بِهِمْ ذَٰلِكَ

الي سباب ومشاتمة واحتقار قوم قومًا ورجع بهم الى القدح في السلف وصار الاختلاف بين اهل المذاهب منشئًا لعداوة ان لم تكن فوق العداوة بين اهل الاديان فليست دونها. فكثيرًا ما كانت سببًا لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضًا حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي ان يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزابًا يتحاز كل حزب الى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل اهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل امر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعًا لتعدي بعضهم على بعض وحسمًا لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم اهواء الملوك الخائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين امضوا صدور اعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من اسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم واهله فصنفوا كتبًا ملأوها احاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة واكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة اكبر من ذلك وليس له سبب الا افتراق العلماء واهمالهم امر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًّا يُخْفِيهِ ٱلضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ ٱلْقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هٰذَا اَنْ تَقُولَ اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ . وَاِنْ قُلْتَ اِنَّهَا ٱلْوُعَّاظُ قُلْتُ هٰذَا اَقْرَبُ فَاِنَّ ٱلْوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اَهْلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ اَخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلْاَمْوَالِ وَاَكْثَرُهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا ٱلْقِطَعَ مِنَ ٱلعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ . فَكَانَ ٱلْوَاعِظُ اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلمَجْلِسِ بَسَطَ مِنْدِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلٌّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِأَجْلِ ٱلْوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ وَبَعْضِ اَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعْضِ اَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَادِي . وَنُمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلمَسْجِدِ ٱلحُسَيْنِيِّ بَعْدَ ٱلعَصْرِ فِي رَمَضَانَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَمَحْصُولُ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطَبِ ٱلْمَنَابِرِ . وَاِنْ كَانَ بَعْضُ اَهْلِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ . فَاِنَّ اَكْثَرَهُمُ ٱلْقُصَّاصُ ٱلْجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ اَمْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يُلَفِّقَ اَحَادِيثَ يَضَعُهَا اَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ يُفْرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلْعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ اَمْرِ ٱلْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلتَّحْرِيضِ عَلَى ٱرْتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِرْسَالِ مَعَ ٱلْاَهْوَاءِ وَطَرْحِ ٱلْمُبَالَاةِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ اَسْبَابِ ٱلْمَغْفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحْمَةِ وَعِظَمِ ٱلْعَفْوِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . لَا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلِٱنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ ٱلْأَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُوَلِّدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلِٱكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمْ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبْعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلِٱحْتِيَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانُهُمْ وَأَبْدَانَ نَسْلِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأعمَالِ ٱلمُتعِبَـةِ وَٱلمحاوَلاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذكِّرُونَهم ثوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهم وَيَضعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعنِ عَلَى تِلكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفرِقُونَ بَيْنَ اَهلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنهُم وَغَيرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلقَدحُ عَامًّا وَٱلإِحتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلإِعتِبَارِ فِيهِ اَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفسَهُ لِوَظِيفَـةِ ٱلهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ اِلَى ٱلخَيرِ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ اَبعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَاَحرَصَهُمْ عَلَى ٱلـكَمَالِ . فَاِنَّ اَدنَى هَفوَةٍ مِنهُ تُسقِطُ اعتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَـكُونُ لِـكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجلِسُـهُ مَسلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَـكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلكَ ٱلمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِاَهلِ ٱلخَلَاعَاتِ وَٱلمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

اِنَّا لا نَعرِفُ ٱلخُطَبَ اِلَّا لِلعَرَبِ وَٱلفُرْسِ . فَاَمَّا ٱلهِندُ فَاِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ اِلَى رَجُلٍ مَعرُوفٍ وَلَا اِلَى عَالِمٍ مَوصُوفٍ . وَاِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجـهِ ٱلدَّهرِ سَائِرَةٌ مَذكُورَةٌ . وَلِليُونَانِيِّينَ فَلسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلمَنطِقِ نَفسُـهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيرَ مَوصُوفٍ بِٱلبَيَانِ مَعَ عِلمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلـكَلَامِ وَتَفصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزعُمُونَ اَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ اَنطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذكُرُوهُ بِٱلخَطَابَةِ وَلَا بِهَـذَا ٱلجِنسِ مِنَ

ٱلبَلَاغَةِ وَفِي ٱلفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلأَلْفَاظُ ٱمْتِثَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وُلْدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلكَلَامُ ٱلجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَاهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَلِيمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ اَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَاَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: اَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ اَنْكَرَ. وَاَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ اَوْ عَصًا. وَاَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. اَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثُرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْاَعْشَى:

وَاَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَاَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي

بِذِي ٱلْعَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ اَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا اَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا اَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا اَفْضَلُ ٱلْاَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا اَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا اَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَاَسْلَمَ سَاَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالُهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حوَتِ ٱلْخَيْرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يَحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوساً لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُونِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِٱللهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَٱقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ ٱقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: ٱنْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكَبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ ٱلْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ٱبْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: ٱلصَّلَاةُ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ ٱلْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَٱلْعَجَمِ وَٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ ٱلْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَٱلْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا ٱلنَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ ٱلدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ ٱلرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ ٱلنَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ ٱلطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ أَكْرَمُ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ ٱلْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي ٱلْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: ٱحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسُكَ ٱلْوَرْدُ وَقَصْرُكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ ٱللهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ ٱلثَّكْلَى وَأَذْهَلَ ٱلزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ ٱلْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ ٱلنَّاسِ بِٱلْخَبَرِ ٱلْبَاهِرِ وَٱلشِّعْرِ ٱلنَّادِرِ وَٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلْفَصَاحَةِ ٱلتَّامَّةِ وَٱللِّسَانِ ٱلْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَٱبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ ٱلْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَٱلْمُنْتَقَى مِنْ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ ٱلْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمِلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا ٱنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ ٱلْكَرَمِ

عتق منظرٍ وجودة مخبرٍ وسهولة لفظٍ وجزالة منطقٍ ونزاهة نفسٍ وكمال خصالٍ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهما والمأثور من خصائصهما جميع ايام من سواهما من لدن آدم الى ان ينفخ في الصور ويبعث اهل القبور حاشا انبياء الله الكرام وسلف عباده الصالحين لما باهت الا بهما ولا عولت في الفخر الا عليهما. ولقد كانا مع تهذيب اخلاقهما ومعسول مذاقهما وسنا اشراقهما وكمال خصال الخير فيهما في محاسن المأمون كالنقطة في البحر والخردلة في القفر



اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعْلَمْ انَّ لِسَانَ ٱلعرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ. وَفَنِّ ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ غَيْرُ ٱلْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلْكَلَامِ. فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ. وَامَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ اِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ اَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَامَّا ٱلْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ: اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ ٱسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتَصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِيَ. وَٱنْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ. وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ. وَٱسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِاسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى ٱلْجُودَةِ انْ يَقُولَ اوَّلا مَا فِعـلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَنوَاعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَايُّمَا هِيَ اجزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اَصْنَافُ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلَّتِي تُقصَـدُ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. وَانْ يَجعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْاَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِالطَّبعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرٍ وَكُلُّ قَولٍ شِعْرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱسْتِقْرَاءِ ٱلْاَشْعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشْعَارِهِمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ اَعْنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَـةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّرْبُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمْرُ وَٱلرَّقْصُ اَعْنِي اَنَّهَا مُعَـدَّةٌ بِٱلطَّبْعِ لِهٰذَيْنِ ٱلْغَرَضَيْنِ. وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ هِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَاَصْنَافُ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّشْبِيـهِ ثَلَاثَةٌ اِثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا. اَمَّا ٱلْاِثْنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيـلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَـكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِاَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ مِثْـلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشْبِيهِ. وَاَمَّا اَخْذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَيْنِـهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْاِبْدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئْتَهُ

وَيَنْبَغِي اَنْ نَعْلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَـدْخُلُ ٱلْاَنْوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهْلُ زَمَانِنَا ٱسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ اَفْرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

إِلَّا أَنَّ ٱلْكِنَايَاتِ أَكْثَرَ ذٰلِكَ هِيَ إِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلشَّيْءِ . وَٱلِٱسْتِعَارَةُ هِيَ إِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ أَعْنِي إِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ إِلَى ٱلثَّانِي نِسْبَةُ ٱلثَّالِثِ إِلَى ٱلرَّابِعِ فَإِبْدَالُ ٱسْمِ ٱلثَّالِثِ إِلَى ٱلْأَوَّلِ وَبِٱلْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ ٱلْإِبْدَالَاتُ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَهُوَ أَنْ يُبَدَّلَ ٱلتَّشْبِيهُ مِثْلَ أَنْ تَقُولَ : ٱلشَّمْسُ كَأَنَّهَا فُلَانٌ أَوِ ٱلشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ كَٱلشَّمْسِ وَلَا هُوَ ٱلشَّمْسُ

وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا أَنَّ ٱلنَّاسَ بِٱلطَّبْعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِٱلْأَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَشْكَالِ وَٱلْأَصْوَاتِ وَذٰلِكَ إِمَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْأَقَاوِيلِ بِٱلطَّبْعِ وَٱلتَّخْيِيلِ . وَٱلْمُحَاكَاةُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مِنْ قِبَلِ ٱلنَّغَمِ ٱلْمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْوَزْنِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلتَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثْلُ وُجُودِ ٱلنَّغَمِ فِي ٱلْمَزَامِيرِ وَٱلْوَزْنِ فِي ٱلرَّقْصِ وَٱلْمُحَاكَاةِ فِي ٱللَّفْظِ . أَعْنِي ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْمُخَيِّلَةَ ٱلْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ بِأَسْرِهَا مِثْلَ مَا يُوجَدُ عِنْدَنَا فِي ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمُوَشَّحَاتِ وَٱلْأَزْجَالَ وَهِيَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا فِي هٰذَا ٱللِّسَانِ أَهْلُ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَشْعَارُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتِ

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ . صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَاذُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا . وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي بِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ اِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذٰلِكَ اَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَاَنْ يَكُفُّوا عنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً اَنْ تَكُونَ ٱلْاُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا اِمَّا فَضَائِلَ وَاِمَّا رَذَائِلَ وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ اِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ اَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً اَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ اِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَاَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْاَرْذَلِينَ. وَاِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ اِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ اَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً اَنْ يَكُونَ ٱلمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ اَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ اِلَى مُحَاكَاتِهَا اَفَاضِلَ. وَٱلمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ اَنقَصُ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَقْرَبُ اِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ. اَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ اَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَاِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

ٱلفَصْلَانِ أعنِي ٱلتَّحسِينَ وَٱلتَّقبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلفَصْلَانِ إنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَولِ لَا ٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلقَوْلِ فَصلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أنْ يُقصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ أوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفسُ ٱلمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلمَادَّةِ ٱلمُعَدَّةِ لِأَنْ يَسْتَحِيلَ إلَى ٱلطَّرَفَيْنِ أعنِي أنَّهَا تَستَحِيلُ تَارَةً إلَى ٱلتَّحسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ أيضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أُومِيرُوشَ أعنِي أنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلمُحَسِّنَةِ وَٱلمُقَبِّحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إجَادَتُهُ إنَّمَا هِيَ فِي ٱلمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحسِينِ وَٱلتَّقبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلأمْرَيْنِ مِثْلُ أُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِأصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأنتَ فَلَيسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَإنْ كَانَتْ أكْثَرُ أشعَارِ ٱلعَرَبِ إنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أبُو نَصْرٍ فِي ٱلنَّهِمِ وَٱلكَرِيهِ. وَذٰلِكَ أنَّ ٱلنَّوعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ أشعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلكَرَمِ. فَإنَّهُ لَيسَ تَحُثُّ ٱلعَرَبُ فِي أشْعَارِهَا مِنَ ٱلفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلفَضِيلَتَيْنِ وَإنْ كَانَتْ لَيسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتُقْرِيَتِ ٱلْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

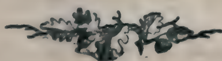
(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتذُّ بِالتَّشبِيهِ لِلاَشيَاءِ الَّتِي قَدْ اَحسَّهَا وَبِالمُحَاكَاةِ لَهَا. وَالدَّلِيلُ عَلَى اَنَّ الاِنسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشبِيهِ بِالطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ اَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ الاَشيَاءِ الَّتِي لَا نَلتَذُّ بِاِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ اِذَا كَانَتِ المُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ الاِستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الحَيوَانَاتِ الَّتِي يَعمَلُهَا المَهَرَةُ مِنَ المُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ العِلَّةِ استُعمِلَ فِي التَّعلِيمِ عِندَ الاِفهَامِ وَالتَّخَاطُبِ الاِشَارَاتُ فَاِنَّهَا اَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ الاَمرِ الَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ الاِلتِذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي الاِشَارَاتِ مِن قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ التَّخيِيلِ فَتَكُونُ النَّفسُ بِحَسَبِ التِذَاذِهَا بِهِ اَتَمَّ قُبُولًا لَهُ. فَاِنَّ التَّعلِيمَ لَيسَ اِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَط بَل وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الفَيلَسُوفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ يُوجَدُ التَّعلِيمُ بِالطَّبعِ يَصدُرُ مِن اِنسَانٍ اِلَى اِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ الاِنسَانِ المُعَلِّمِ مِنَ الاِنسَانِ المُتَعَلِّمِ وَالاِشَارَاتُ لَمَّا كَانَت اِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ لِاُمُورٍ قَد اُحِسَّت فَبَيِّنٌ اَنَّهَا اِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ المُسَارَعَةِ اِلَى الفَهمِ وَالقَبُولِ لَهُ وَاَنَّهُ اِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الاِلتِذَاذِ لِمَوضِعِ التَّخيِيلِ الَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ العِلَّةُ الاُولَى المُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَاَمَّا العِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالتِذَاذُ الاِنسَانِ اَيضًا بِالطَّبعِ بِالوَزنِ وَالاَلحَانِ فَاِنَّ الاَلحَانَ يَظهَرُ مِن اَمرِهَا اَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ الَّذِينَ فِي طِبَاعِهِم اَن يُدرِكُوا الاَوزَانَ وَالاَلحَانَ فَالتِذَاذُ النَّفسِ بِالطَّبعِ بِالمُحَاكَاةِ وَالاَلحَانِ وَالاَوزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّنَاعَاتِ الشِّعرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلفِطَرِ ٱلفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَاِذَا نَشَأَتِ ٱلْاُمَّـةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا اَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرٍ وَهٰـكَذَا اِلَى اَنْ تَـكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ . وَتَـكْمُلُ اَيضًا اَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِٱلْتِذَاذِ اَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ اَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ اَعْنِي مَدِيحَ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ . وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ اَخَسُّ مِنْ هٰـذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ اَعْنِي هِجَاءَ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصَدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلْشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ اَنْ يَمْدَحَ ٱلْاَخْيَارَ وَٱلْاَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَـكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ اَكْثَرَ اَعْنِي اِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلْاَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ . فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ اَوْ لِلْاَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَـكُلُّهُ اَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ اَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ اَنَّهُ يَذْكُرُ اَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَـلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَاَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلـكَوْنِ عَلَى اَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا اَوَّلَ مَنِ ٱبْتَـدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْـدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى اُومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ اَنَّهُ ٱلَّذِي اَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَاَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ

قَبلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلهِجَاءِ وَلَا فِي غَيرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلمَشْهُورَةِ عِنـدَهُمْ . قَالَ وَٱلاَنقَصُ مِنَ ٱلاَشْعَارِ وَٱلاَقصَرُ هِيَ ٱلمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِاَنَّ ٱلطِّبَاعَ اَسهَلُ وُقُوعًا عَلَيهَا اَوَّلًا. وَٱلاَقصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَـكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ اَقَلَّ وَٱلاَنقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَـكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ اَقَلَّ اَيضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلاَنوَاعَ اَسبَقُ اِلَى ٱلنُّفُوسِ اَنَّ ٱلنَّاسَ عِنـدَ ٱلمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِندَ ٱلحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا اَحسَبُ مِثلَ قَولِ ٱلقَائِلِ: لَا لَا لَا يُمَدُّ بِهَا صَوتَهُ. وَمِثلَ قَولِهِ لَيسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوتَهُ فَاِنَّ اَمثَالَ هٰذِهِ ٱلمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوزُونَةٌ ذَاتُ لَحنٍ وَاَمَّا ٱلَّتِي هِيَ اَطوَلُ وَاَتَمُّ فَاِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلهِجَاءِ لَيسَ اِنَّمَا يُقصَدُ بِهَا ٱلمُحَاكَاةُ بِـكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِـكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُستَهزَأٌ بِهِ اَيْ مَرذُولٌ قَبِيحٌ غَيرُ مُغتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى اَنَّ ٱلِاستِهزَاءَ يَجِبُ اَنْ يَجمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلاَوصَافَ اَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجهِ ٱلمُستَهزِىءِ هٰذِهِ ٱلاَحوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ اَعنِي قَبَاحَةَ ٱلوَجهِ وَهَيْئَـةَ ٱلِاستِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِاكتِرَابِ بِٱلمُستَهزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجهِ ٱلغَاضِبِ اَعنِي اَنَّ فِيهِ قُبحًا وَٱهتِمَامًا وَتِلكَ هِيَ حَالَةُ نَفسِ ٱلغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغضَبُ عَلَيهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولَحْنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجَادُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَخَصُّ ٱلْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقِيِّ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخَيَّلَ. وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلْمُنْشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْأَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِٱسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً : ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ. وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ وَٱلِٱسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَاِمَّا اَنْ تُوطِّئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ اِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْاِدَارَةِ وَاِمَّا اَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ اَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْاُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ اَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ اَعْنِي اَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَاِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْاُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِاَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ اَنْ يُحَاكَى بَلْ اِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ اِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْاِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى صُوَرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ اَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزَّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ اَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ اِلَّا اَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ اَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْاَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَاَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِٱحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعَرِّفُ مِمَّاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَإِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ. فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَبْدَإِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ أُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَأُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ إِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً الغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِأَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلًّا وَكَامِلَةً وَٱلْكُلُّ وَٱلْكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلْآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ إِذْ كَانَ ٱلْوَسَطُ فِي ٱلْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَإِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلْجُبَنَاءِ وَٱلْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلْوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَدُّ ٱلْفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلْوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلْاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطاً اي خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلُ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَانْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطاً فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَامَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلعَادَةُ عِندَ ٱليُونانِيِّينَ اِذْ كَانُوا اِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَاِمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلاَيَّامِ كَالْحَالِ عِندَنا اِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِندَنَا اِنَّمَا هِيَ ٱلاَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا اِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ اَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلاَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلْحَالِ فِي ٱلاَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ اِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلبَخْتِ صَارَتْ اِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ اِلَى ٱلضِّدِّ اَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُنْتَقَلَ اِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ اَلَّا يُطَوِّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلاَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ اَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهِ اَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ اِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا اُومِيرُوشَ. وَاَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْمَدْحِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ اَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ اَوْ قَوْسٍ اَشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَاَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أَعنِي اَنْ تَكُونَ اِنَّمَا تفعلُ جَمِيعَ مَا تَفعلهُ مِنْ اَجلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ. وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَوَاجِبٌ اَنْ يَكُونَ اَلتَّشْبِيهُ وَٱلْمحَاكَاةُ لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَاَنْ يَكُونَ لِأَجزَائِهِ عِظَمٌ مَحْدُودٌ وَاَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ اَلْوَسَطُ اَفضَلَهَا فَاِنَّ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي وُجُودُهَا فِي ٱلتَّرْتِيبِ وَحُسْنِ ٱلنِّظَامِ اِذَا عَدِمَتْ تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوجَدْ لَهَا ٱلفِعْلُ ٱلْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ اَيضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ مَقْصَدِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَنَّ ٱلْمحَاكَاةَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْأُمُورِ ٱلْمُختَرَعَةِ ٱلكَاذِبَةِ لَيسَتْ مِنْ فِعلِ ٱلشَّاعِرِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى اَمْثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا فِي كِتَابِ دِمْنَةَ وَكَلِيلَةَ. لٰكِنَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ اَوِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلْوُجُودِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُقْصَدُ ٱلْهَرَبُ عَنْهَا اَوْ طَلَبُهَا اَوْ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ ٱلْمحَاكَاةِ. وَاَمَّا ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلْأَمْثَالَ وَٱلْقِصَصَ فَاِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ ٱلشُّعَرَاءِ وَاِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالَ وَٱلْأَحَادِيثَ ٱلْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذٰلِكَ اَنَّ كِلَيْهِمَا وَاِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْوَزْنِ فَاَحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ ٱلْعَمَلُ ٱلَّذِي قَصَدَهُ بِٱلْخُرَافَةِ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ ٱلتَّعَقُّلُ ٱلَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَٱلشَّاعِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى ٱلتَّمَامِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اِلَّا بِٱلْوَزْنِ فَٱلْفَاعِلُ لِلْأَمْثَالِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَٱلْقِصَصِ اِنَّمَا يَخْتَرِعُ اَشْخَاصًا لَيسَ لَهَا وُجُودٌ اَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا اَسْمَاءً وَاَمَّا ٱلشَّاعِرُ فَاِنَّمَا يَضَعُ اَسْمَاءً لِأَشْيَاءَ مَوْجُودَةٍ وَرُبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ اَقْرَبَ اِلَى ٱلْفَلْسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْأَمْثَالِ وَهٰذَا ٱلَّذِي

قالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكِيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلأَفْعَالِ ٱلإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَأَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلأَعْشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْمحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلْاعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَفَنِّنَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَالَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَعْمَالِ فَكَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ. وَٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَسِيطَةُ هِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعَيِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِدَارَةَ أَوِ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلِاسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا ٱلصِّنْفَانِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبْتَدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِاسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِٱلِاسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِاعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِاسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ يُبْدَأَ أَوَّلًا بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلِاسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِٱلِاسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِٱلْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ ٱلْمَقْصُودِ مَدْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يَنْفِرُ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلْمَمْدُوحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلسَّعَادَةَ وَأَهْلَهَا ٱبْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ ٱلشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا ٱلِاسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ ٱلشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ ٱلِاسْتِدْلَالِ مَا خُلِطَ بِٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ ٱلِاسْتِدْلَالُ وَٱلْإِدَارَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي ٱلْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةِ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

اوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جهةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاَسْتِدلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِاَسْتِدْلَالَ وَٱلْاِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ
اَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ
اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ اَسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِاَسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاَسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلِاَنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

Τραγωδια

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) فَامَّا اَجزاء صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اجزاؤُها مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اَجزَاءَ خَاصَّةً بِاَشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . ٱلْجُزْء ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْء ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ . وَٱلْجُزْء ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْء اَكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاء لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْء ٱلْاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخَرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلِانْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي ٱسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجزَاء صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِيَّةِ فَقَدْ

اَخبَرْنَا بِهَا. فَاَمَّا مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ يُمكِنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَنَحْنُ
مُخْبِرُونَ عَنْهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذٰلِكَ اِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَنْبَغِي كَمَا
قِيلَ اَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ ٱلْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ
مِنْ اَنْوَاعِ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ وَاَنْوَاعِ ٱلْاِدَارَةِ وَمِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تُوجِبُ
ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلْمُخِيفَةَ ٱلْمُحَرِّكَةَ ٱلْمُرَقِّقَةَ لِلنُّفُوسِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ يَجِبُ اَنْ
تَكُونَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُقْصَدُ بِهَا ٱلْحَثُّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ
مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ اَشْيَاءَ مُخَوِّفَةٍ مُحْزِنَةٍ يُتَفَجَّعُ لَهَا وَهِيَ ٱلشَّقَاوَةُ
ٱلَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ ٱلْفَضَائِلِ لَا بِاسْتِيهَالٍ وَذٰلِكَ اَنَّ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ
يَشْتَدُّ تَحَرُّكُ ٱلنَّفْسِ لِقَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ فَاِنَّ ٱنْتِقَالَ ٱلشَّاعِرِ مِنْ مُحَاكَاةِ
فَضِيلَةٍ اِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةٍ اَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ اِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ
لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَحُثُّ ٱلْاِنْسَانَ وَيُزْعِجُهُ اِلَى فِعْلِ ٱلْفَضَائِلِ اِذَا
كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةً لَهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ
يَجِبُ اَنْ يُوجَدَ فِيهَا هٰذَانِ ٱلْاَمْرَانِ وَذٰلِكَ يَكُونُ اِذَا ٱنْتَقَلَ مِنْ
مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ اِلَى مُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَرَدَاءَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلنَّازِلَةِ بِٱلْاَفَاضِلِ
اَوِ ٱنْتَقَلَ مِنْ هٰذِهِ اِلَى مُحَاكَاةِ اَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةَ
تُرِقُّ ٱلنُّفُوسَ وَتَدْعَجُهَا اِلَى قَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ وَاَنْتَ تَجِدُ اَكْثَرَ ٱلْمُحَاكَاةِ
ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي ذُكِرَ اِذْ
كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اَقَاوِيلَ مَدِيحِيَّةً تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَمَلِ مِثْلُ مَا وَرَدَ
مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَاِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْاَقَاصِيصِ ٱلَّتِي تُسَمَّى
مَوَاعِظَ (قَالَ) وَاِنَّمَا تَحْدُثُ ٱلرَّحْمَةُ وَٱلرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ ٱلشَّقَاوَةِ

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ. وَٱلْخَوفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخْيِيلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلْأَصْدِقَاءِ. وَأَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ أَوْ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَإِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ أَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلأَعْدَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِثْلُ ٱلأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ ٱلإِخْوَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلآبَاءِ ٱلأَبْنَاءَ أَوِ ٱلأَبْنَاءِ ٱلآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلأُكْذُوبَاتِ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا اَحْسَنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَفعَالِ (قَالَ) فَاَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْاَشعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَاَمَّا اَيُّ ٱلْعَادَاتِ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ اِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيِّدِ اَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ اَرْبَعَةٌ اِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَاِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَاِنْ كَانَ فِيهِ اَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا . وَٱلثَّانِيَةُ اَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْاَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ . وَٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ . وَٱلرَّابِعَةُ اَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاَطْرَافِ وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَاِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ اِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَاِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَاِمَّا مَشْهُورَةٌ اَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِأُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

انواعٌ كثيرةٌ فمنها ان تكونَ ٱلمحاكاةُ لاشياء محسوسةٍ باشياء محسوسةٍ من شأنها ان توقعَ ٱلشكَّ لمن ينظرُ اليها وتُوهِمُ انها هي لاشتراكها في احوالٍ محسوسةٍ وذلكَ مثلُ تسميتهم لبعض صورِ ٱلكواكبِ سرطانًا ولبعضها ممسكَ ٱلحربةِ لانها من جهةِ ٱلشكلِ يُمكن ان يتوهم متوهمٌ انها هي هي . وجلُّ تشبيهاتِ ٱلعربِ راجعةٌ الى هذا ٱلموضعِ ولذلكَ كانت حروفُ ٱلتشبيهِ عندهم تقتضي ٱلشكَّ وكلما كانت هذهِ ٱلمتوهماتُ اقربَ الى وقوعِ ٱلشكِّ كانت اتمَّ تشبيهًا وكلما كانت ابعدَ من وقوعِ ٱلشكِّ كانت انقصَ تشبيهًا وهذهِ هيَ ٱلمحاكاةُ ٱلبعيدةُ وينبغي ان تُطرحَ وذلكَ مثلُ قولِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ في ٱلفرسِ :

كأنها هِراوةُ مِنوالِ

ومثلُ قولهِ :

اذا اقبلَتْ قلتُ دُبَّاءةٌ	منَ ٱلخُضرِ مغموسةٌ في ٱلغُدُرْ
وإن ادبرَتْ قلتُ أُثفيةٌ	مُلَمْلَمةٌ ليسَ فيها أُثُرْ

وان كانَ هذا اقربَ منَ ٱلاوّلِ لانَّ فيهِ مُقابلةً ما . ومنها ان تكونَ ٱلمحاكاةُ لأُمورٍ معنويّةٍ بأُمورٍ محسوسةٍ اذ كانَ لتلكَ ٱلأُمورِ افعالٌ مُناسبةٌ لتلكَ ٱلمعاني حتّى تُوهِمَ انها هيَ مثلُ قولهم في ٱلمِنَّةِ انها طوقُ ٱلعنقِ وفي ٱلاحسانِ قيدٌ كما قالَ ابو ٱلطيّبِ :

ومن وجدَ ٱلاحسانَ قيدًا تقيّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ . وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُثَبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ . فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفُقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمَثَالَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يَغْلُهُ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا
أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا مَا بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ :

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلَا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ   وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ   صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ   وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكَ ٱلدَّوَّارَ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ   لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ ... وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ ... وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ ... وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ:

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اُبِثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

اَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ ... حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْاَصَمِّ ٱلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي ... وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْإِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْإِسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلْإِسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ.

(قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللّٰهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللّٰهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي
أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعهَا اِلَيْكَ وَٱحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قِتَةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي اَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْاَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي اَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ اَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ اَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَاِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَاَتَّى بِاَنْ يَحْصُلَ لِلْاِنْسَانِ اَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ اَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَاِنَّمَا اَشَارَ بِذٰلِكَ اِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْاُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ اَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ اَقْرَبَ ٱلْاَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي اَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِاسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ اَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ اَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَاَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِٱلْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ ٱلْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ ٱلْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا ٱلشَّادِنُ ٱلْعَرَبَا
فَٱسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَٱلْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ ٱلشَّرَى وَهْوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا ٱنْتَسَبَا

وَأَمَّا ٱلْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ :

دَعْ ذَا وَعَدِّ ٱلْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا ٱلْإِدَارَةُ . وَٱلثَّانِي ٱلْإِسْتِدْلَالُ . وَٱلثَّالِثُ ٱلْإِنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَٱلرَّابِعُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ ٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ ٱلْمَدَائِحِ ٱلْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْقَصَائِدِ ٱلْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ ٱلْأَشْعَارَ ٱلْقِصَارَ وَٱلْقَصَائِدَ ٱلْقَصِيرَةَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُجِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنَ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَن. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ أَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِٱنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تُثَبَّتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ أَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ هَا هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تُهَجِّنُهَا إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ بِحَضْرَةِ ٱلْمَلَإِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شَرُفْتَ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هٰذَا إِنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ. وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ. فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيَّنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ وَإِمَّا مُفَارَقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْإِسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ . وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلنَّادِرُ ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنَ ٱلنَّوْعِ إِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ أَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَأَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

اِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَاَمَّا ٱلْمُفَارَقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارَقِ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ اَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِاسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَاِنَّهُ فِيمَا اَحْسِبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلِفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱلِاسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَاَمَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَاِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَاِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ ٱلْغَالِبِ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْأَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْأُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْأَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطُ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِط فِي ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَهْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى. فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدرِ أَهـلِ ٱلعَزمِ تَأْتِي ٱلعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدرِ ٱلكِرَامِ ٱلمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ وَكُلِّ ٱلْمَعنَى قَولُهُمْ دِرْهَمٌ ضَربُ ٱلأَمِيرِ وَمَضرُوبُ ٱلأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكسِ هٰذَا أَعنِي فِي كُلِّ ٱللَّفظِ وَبَعضِ ٱلمَعنَى ٱلأَسمَاءُ ٱلمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَستَعمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفظِ فَقَطِ ٱلأَسمَاءُ ٱلْمُشتَرَكَةُ مِثلُ قَولِ ٱلمَعَرِّيِّ :

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثلُ قَولِهِ :

فَرَنْدُكَ مُغتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ فَقَطْ قَولُ حَبِيبٍ :

مَا أَنتَ عَنْ ذُهلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَولُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

أُقَلِّبُ ٱلطَّرفَ بَينَ ٱلخَيلِ وَٱلخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلعَرَبِ مِثلُ ٱلضَّربِ وَٱلضَّربِ وَٱلحَمـلِ وَٱلحَمَلِ وَأَشرَقَتِ ٱلشَّمسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعنَى فَقَطِ ٱلأَسمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثلُ قَولِهِ أَقوَى وَأَقفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعضِ ٱلْمَعنَى فَقَطِ ٱلأَسمَاءُ ٱلمُختَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيءِ ٱلوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُختَلِفَةٍ مِثلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلقَوَافِي عِندَ ٱلعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلمِقدَارِ وَفِي بَعضِ ٱللَّفظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِيرُ وَاِمَّا فِي حرفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعرِّفُهُ ٱلْمُحَدَّثُونَ بِٱللُّزُومِ . وَامَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي اَجزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى اَنْحَاءِ اَرْبَعَةٍ اَحَدُهَا اَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلْاَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ اِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ اَرْبَعَةِ اَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ :

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِاَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ :

كَاَنِّيَ لَمْ اَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ اَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ اَسْبَاِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ اَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ اِجْفَالِ

اِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَاِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْاَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَاَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْاَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

اِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ اَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلْاَوَّلِ وَمَا قَالَهُ اَبُو ٱلطَّيّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلْاَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ اَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلْقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا اَوْ قَوْلًا شِعْرِيًّا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلْقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

يَا دَارُ اَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ ... قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا اُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَاَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَاَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلْإِنْسِ وَٱلْاُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَاَنْتَ إِذَا تَاَمَّلْتَ ٱلْاَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْإِبْدَالِ وَٱلتَّشْبِيهِ وَبِٱلْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ ٱلْعَادَةِ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلزِّيَادَةِ وَٱلنُّقْصَانِ وَٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلْإِيجَابِ إِلَى ٱلسَّلْبِ وَمِنَ ٱلسَّلْبِ إِلَى ٱلْإِيجَابِ وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنَ ٱلْمُقَابِلِ إِلَى ٱلْمُقَابِلِ وَبِٱلْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَٱلْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى. وَٱلْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَٱلسُّنَّةُ سَبَبُ ٱلْإِنْسَانِ لَا ٱلْإِنْسَانُ سَبَبُ ٱلسُّنَّةِ. وَٱلتَّقْدِيمُ وَٱلتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَٱلزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَمِثَالُ ٱلتَّغْيِيرِ مِنَ ٱلْإِيجَابِ إِلَى ٱلسَّلْبِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ:

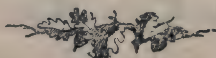
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ ٱلْفَضَائِلَ لِيَنْفِيَ ٱلْعُيُوبَ وَٱسْتَثْنَى مِنْهَا مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ ٱلتَّغْيِيرَاتِ ٱللَّذِيذَةِ جَمْعُ ٱلْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ

وَكَوْنُ ٱلضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا ٱلْبَسِيطَةُ وَٱلْمُرَكَّبَةُ ٱلْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْكُلِّيَّاتِ

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا ٱلْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْأَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ ٱلْإِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ أَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْإِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْإِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ أَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَأَمَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْأَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الأشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا انَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تُنْقَلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَأَثْنَى ثَنَاءً عَامًّا عَلَى أُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَأَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قَالَ) وَاَجزَاءُ هٰذَا ٱلنَّوعِ هِيَ اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ ٱلعَفِيفِيَّةِ مِنَ ٱلإِدَارَةِ وَٱلإِستِدلَالِ وَٱلتَّركِيبِ مِنهُمَا. وَرُبَّمَا كَانَ بَعضُ اَجزَائِهَا ٱنفِعَالِيًّا كَالحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ. وَصَنَائِعُ ٱلشِّعرِ وَاَحكَامُهَا فِي ٱلتَّلحِينِ وَٱلغِنَاءِ اَحكَامُ صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ. وَذَكَرَ فُرُوقًا بَينَ صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ وَبَينَ صَنَائِعِ ٱلشِّعرِ ٱلأُخَرِ عِندَهُم وَخَوَاصَّ تَختَصُّ بِهَا تِلكَ ٱلأَشعَارُ ٱلأُخَرُ فِي ٱلأَوزَانِ وَٱلأَجزَاءِ وَٱلمُحَاكَاةِ وَٱلقَدرِ وَاَنَّ هَا هُنَا اَوزَانًا هِيَ ٱلَّتِي بَعضُ ٱلأَشعَارِ مِن بَعضٍ وَذَكَرَ مَن اَجَادَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي هٰذِهِ ٱلأَشيَاءِ وَمِن لَم يُجِد وَاَثنَى فِي هٰذَا كُلِّهِ عَلَى اُومِيرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خَاصٌّ بِهِم وَغَيرُ مَوجُودٍ مِثَالُهُ عِندَنَا اِمَّا لِاَنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذِي ذَكَرَ غَيرُ مُشتَرَكٍ لِلأَكثَرِ مِنَ ٱلأُمَمِ وَاِمَّا اَنَّهُ عَرَضَ لِلعَرَبِ فِي هٰذِهِ ٱلأَشيَاءِ اَمرٌ خَارِجٌ عَنِ ٱلطَّبعِ وَهُوَ اَبيَنُ فَاِنَّهُ مَا كَانَ لِيُثبِتَ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِم بَل مَا هُوَ مُشتَرَكٌ لِلأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنبَغِي اَن يَكُونَ مَا يَأتِي بِهِ ٱلشَّاعِرُ مِنَ ٱلكَلَامِ يَسِيرًا بِٱلإِضَافَةِ اِلَى ٱلكَلَامِ ٱلمُحَاكَى كَمَا كَانَ يَفعَلُ اُومِيرُوشُ فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَانَ يَعمَلُ صَدرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ اِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِن غَيرِ اَن يَأتِيَ فِي ذٰلِكَ بِشَيءٍ لَم يُعتَد لٰكِن مَا قَدِ ٱعتِيدَ فَاِنَّ غَيرَ ٱلمُعتَادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيَا اَحسِبُ لِاَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا اَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي اَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى اَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى اَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ اَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَاَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ اَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ اَصْنَافٍ. اَحَدُهَا اَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ. وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

اُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ اَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَاِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَاِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبِهِ وَاِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ اِنَّمَا يَجِبُ انْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ اَوْ يُظَنُّ اَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْاَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ اَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْاَكْثَرِ لَا فِي ٱلْاَقَلِّ اَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَاِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ اَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا اَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْاَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي اَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْاَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى اُذْنَيْهِ اُذْنٌ ثَالِثٌ   مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْاَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِاَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَاِنَّ هٰذَا اَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا اِلَّا اَنْ يُشَبَّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبِبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ اَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ اَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَاَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقَرْءِ وَٱلْجَلْدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ :

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ :

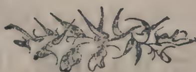
ٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ : يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ أَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَٱزْدَدتُّ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَٱزْدَدتُّ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَٱلْجُيَمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ . وَكَانَ اَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ اَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْاَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ اَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ اَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ اَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْاَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْاَصْغَرِ وَٱلْاَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلْاَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْاَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلْاَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحَرْثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَاَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ اِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ اِلَى ٱلْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ اَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَاَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ اَوْسٌ اَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ اَوسِ زُهَيْرٌ وَكَانَ اوسٌ زَوْجَ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ اَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ ٱخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱدَّعَتِ ٱلْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ ٱلْاَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَادَّعَتِ ٱلْيَمَانِيَةُ لِاَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ وَتَغلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَٱلْمُرَقِّشِ ٱلْاَكْبَرِ وَاِيَادٌ لِأَبِي دُوَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ اَنَّ ٱلْاَفْوَهَ ٱلْاَوْدِيَّ اَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلْمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ اَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ ٱلْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي اَمَالِيهِ) قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلْاَضْبَطُ بْنُ مُرَابِعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ ٱلْاِسْلَامِ اَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعْرَ ٱبْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ): اَلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ اَنَّهُ اَشْعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى ٱلنَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا اَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ : اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ اَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ اَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ اَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَاَنَّ اَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ اَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِاَنْ قَالَ : رَاَيْتُهُ اَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَاَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَاَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِاَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى اَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْاَوَابِدَ وَاَجَادَ ٱلِاسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَاَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضَّلِيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّيْخُ اَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ
وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ
ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو
ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى
ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ
إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا
كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ
مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ
وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ
ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا.
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ
ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ ٱمْرُؤُ
ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ)
وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ لِأَحَدٍ
غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ
وَٱلْحَرْثَ بْنَ حِلِزَّةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى
ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي
ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ
فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ
وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدتُّ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي بَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ بَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ... كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى ... فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيُرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ احَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ ايُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ افْسَدَتْهُ كَمَا افْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ. وَامَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اشُكُّ انِّي اشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ ابِي ٱلْخَطَّابِ انَّ ابَا عَمْرٍو يَقُولُ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ: ارْبَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاخْطَلُ: ٱلْاعْشَى اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ احْمَرَ: زُهَيْرٌ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ: لَبِيدٌ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: طَرَفَةُ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْاهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِاتِّفَاقِ. وَكَانَ ٱبْنُ ابِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ: اشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاكْبَرُ وَاشْعَرُ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ انَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى انَّهُ اوَّلُ مَنْ اطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً: مَنْ اشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: اخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ اوْسَ بْنَ حَجَرٍ. وَلَيْسَ لِاحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ: فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ: أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلِّيَّةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِشَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: أُفْتِتِحَ ٱلشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ٱلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلْجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلْإِسْلَامِيُّ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَعْشَى وَٱلْأَخْطَلُ وَأَبُو ٱلْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ ٱلْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلْإِشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْحَسَنِ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلْآدَابِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلْمُحْدَثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّورِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ أَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَإِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا أَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ أَيْ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْأَعْشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ:

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ ... بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنَقُ

وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنَّمَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءِ اَحْسَنَهُ وَيُلْغِي مَا لَا يَسْتَحْسِنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ اَقْوَامًا
اَرَادُوا اَنْ يَرْفَعُوا اَنْفُسَهُمُ ٱلْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلْخَامِلِ
وَيُعْلُوا اَقْدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعْنِ عَلَى اَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْحِ فِيهِمْ
فَلَا يَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ اِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزْدَادُ ٱلْآخَرُ اِلَّا ٱرْتِفَاعًا. اَلَا تَرَى
اِلَى ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ اَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلَفٌ يُقَرِّظُهُ
وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ اِخْبَارِهِ
وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلْعُلُومِ اِلَّا رِفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ اِلَى اَضْدَادِهِ
كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيظِ اَنْفُسِهِمْ. وَاَسْلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا
مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَٱلطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا
اَشْعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَاِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمِ
ٱلْمُحَصَّلُ ٱلْمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي ٱلْآدَابِ اِلَى ٱلتَّشْنِيعِ بِاَمْرِ
ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ اَبِي طَالِبٍ وَهُمْ اَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى
آلِ اَبِي طَالِبٍ عِنْدَ ٱلْمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ
اَنْفُسِهِمْ بِذٰلِكَ اِلَى عَيْبِهِ وَٱرْتَكَبُوا اَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ
حَسَنَ ٱلْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ ٱلْمُوسِيقَى وَٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي
ذٰلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْآدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ
وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ وَاَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيْدِ
ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً اِلَيْهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ اِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ اِلَى ٱبْنِ
حَمْدُونَ فِي اَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ اَنْ يُغَيِّرَ ٱلْاِنْسَانُ بَعْضَ نَغَمِ ٱلْغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلْقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ اَكْثَرَ مِنْ اَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ اَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَاَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ اُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا اِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي اَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ اَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (ارَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْاَ م يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَبِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ اشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيِّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْاَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ اِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فِمنهمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْـدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُوءُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْـكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا فَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ اوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْاخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْأَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُـدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَـدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ انْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِـهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّـةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِـلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قَبِيحٍ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَيْسَ ٱلنَّمَطُ وَاحِدًا. هٰذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو وَأَصْحَابِهِ كَٱلْأَصْمَعِيِّ وَٱبْنِ ٱلْأَعْرَابِيِّ أَعْنِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَيُقَدِّمُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِشَيْءٍ إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ إِلَى ٱلشَّاهِدِ وَقِلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَأْتِي بِهِ ٱلْمُوَلَّدُونَ فَأَمَّا ٱبْنُ قُتَيْبَةَ فَقَالَ: لَمْ يَقْصِرِ ٱللهُ ٱلشِّعْرَ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ وَلَا خَصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ بَلْ جَعَلَ ذٰلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلَّ قَدِيمٍ حَدِيثًا فِي عَصْرِهِ. ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي بَابٍ آخَرَ: طَبَقَاتُ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُخَضْرَمٌ وَهُوَ ٱلَّذِي أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُحْدَثٌ ثُمَّ صَارَ ٱلْمُحْدَثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَةً عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ هٰكَذَا فِي ٱلْهُبُوطِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا فَلْيَعْلَمِ ٱلْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا بَقِيَ لَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مُتَصَفِّحًا أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ ٱلْمُخَضْرَمِ وَٱلْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَٱلْمُخَضْرَمِ وَأَنَّ لِلْمُحْدَثِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلًا عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ. فَفِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِيِّينَ مَنْ ذَهَبَ بِكُلِّ مَلَاحَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طَلَاوَةٍ وَلَبَاقَةٍ (قَالَ) أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَاءٌ خِضْرِمٌ إِذَا تَنَاهَى فِي ٱلْكَثْرَةِ وَٱلسَّعَةِ فَمِنْهُ سُمِّيَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي شَهِدَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا كَأَنَّهُ ٱسْتَوْفَى ٱلْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ: أُذُنٌ مُخَضْرَمَةٌ إِذَا كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ ٱنْقَطَعَ عَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ. (وَحَكَى) ٱبْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ ٱلْأَصْمَعِيِّ قَالَ: أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا . وَفَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوقَ ٱلْخُنْفَسَاءِ فَصغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ انَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ : مَنْ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَاَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اِلَّا انْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ :

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ ... وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ

إِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ ... زَلَّتْ بِهِ اِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهُ

يُرِيدُ اَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ اَرْبَعَهْ ... فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ

وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ ... وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ

وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ : وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ . قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ : اَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ اَيْ اَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ : اِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ اَيْ اَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ : هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ . اه . وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي : قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي ... صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَاَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ

إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْإِزَا ... رِ فَذَلِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا ‏ ‏ اَبُو اُمِّهِ حَيٌّ اَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَاَمْثَالُهُ وَاِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلْاِضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ اِذَا اُحْوِجَ اِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ اِلَى اَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَاَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَاِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ قَالَ قَائِلٌ اَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ اَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا اَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ ‏ ‏ مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا اَيْضًا قَدْ اَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِاَنْ يُلَامَ. وَتَرْكَ بَيِّنِ ٱلْكَلَامِ. وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ اَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَاِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ اَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ اَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ اَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى اَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَاَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَاِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ اَشَدُّ

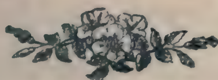
حضرًا. وأمدُّ عصرًا وذلكَ أنَّ الشَّاعِرَ إنّما هُوَ رَاغِبٌ راهِبٌ أَو مُعاتِبٌ بَيْنَ يدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حكَى عَنْ نَفسِهِ وَإِلَّا كانَ جدِيرًا بِأَنْ يَهلِكَ فمِنْ ذلكَ ما رواهُ ٱبْنُ جِنّيٍّ قالَ: حدَّثنا أحمدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حدَّثنا أبو عبدِ ٱللهِ ٱلغلابيُّ حدَّثنا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قالَ: دَخلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعمانِ بنِ ٱلمُنذِرِ فقالَ:

تَخِفُّ ٱلأَرْضُ إِنْ تَفقِدْكَ يومًا ... وَتَبْقَى ما بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعمانُ نظرَ غضبانَ. وكانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيرٍ حاضِرًا فقالَ: أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلمَلِكَ إِنَّ مع هٰذا بيتًا ضلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوضِعُ ٱلقِسْطَاسِ مِنْهَا ... فَتَمْنَعُ جانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فضحِكَ ٱلنُّعمانُ وأمرَ لهُما بجائزتَيْنِ فلولا كعبٌ كانَ قد هلكَ. فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلمَلِكِ ٱلأَشَمِّ بِمَا لا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلكَ سَبَبًا لِبُطْلانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَٱلقُدَماءُ فِي هٰذا أَعْذَرُ لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَانْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عَنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا الَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ انْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ انْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اعْطَافِ شِعْرِهَا بِانْ تُجَنِّسَ اوْ تُطَابِقَ اوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسطِ ٱلمعنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحكَامِ ٱلقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسقَهُ ٱلكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ بِأَنْ يَبْنُوا ٱلمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ ٱلجَارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلبَيْتِ وَٱلبَيْتَيْنِ فِي ٱلقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أَنظَفُ أَصْحَابِهِ شِعْرًا وَأَكْثَرُهُمْ بَدِيعًا وَأَفْتِنَانًا وَأَقْرَبُهُمْ قَوَافِيَ وَأَوزَانًا وَلَا أَرَى وَرَاءَهُ غَايَةً لِطَالِبِهَا فِي هٰذَا ٱلبَابِ. غَيْرَ أَنَّا لَا نَجِدُ ٱلْمُبْتَدِئَ فِي طَلَبِ ٱلتَّصْنِيعِ وَمُزَاوَلَةِ ٱلْكَلَامِ أَكْثَرَ ٱنْتِفَاعًا مِنْهُ بِمُطَالَعَةِ شِعْرِ حَبِيبٍ وَشِعْرِ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ لِمُبْتَغِيهَا وَلِأَنَّهُمَا طَرَقَا إِلَى ٱلصَّنْعَةِ وَمَعْرِفَتِهَا طَرِيقًا سَابِلَةً وَكَثَّرَا مِنْهَا فِي أَشْعَارِهِمَا تَكْثِيرًا سَهَّلَهَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَجَسَّرَهُمْ عَلَيْهَا. عَلَى أَنَّ مُسْلِمًا أَسْهَلُ شِعْرًا مِنْ حَبِيبٍ وَأَقَلُّ تَكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّفَ ٱلْبَدِيعَ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلصَّنْعَةِ وَكَثَّرَ مِنْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثَةِ قَبْلَ مُسْلِمٍ إِلَّا ٱلنُّبَذُ ٱلْيَسِيرَةُ. وَهُوَ زُهَيْرُ ٱلْمُوَلَّدِينَ كَانَ يُبْطِئُ فِي صَنْعَتِهِ وَيُجِيدُهَا. وَقَالُوا: أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ ٱلْبَدِيعَ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَهُوَ سَاقَةُ ٱلْعَرَبِ وَآخِرُ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا مُقْتَدِيًا بِهِمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو ٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورٌ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ وَٱتَّبَعَ هٰؤُلَاءِ أَبُو تَمَّامٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَٱنْتَهَى عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ وَٱلصَّنْعَةِ وَخُتِمَ بِهِ. وَشَبَّهَ قَوْمٌ أَبَا نُوَاسٍ بِٱلنَّابِغَةِ لِمَا ٱجْتَمَعَ لَهُ مِنَ ٱلْجَزَالَةِ مَعَ ٱلرَّشَاقَةِ وَحُسْنِ ٱلدِّيبَاجَةِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِمَدْحِ ٱلْمُلُوكِ. وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَدْ شَبَّهُوهُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ لِتَقَدُّمِهِ عَلَى ٱلْمُوَلَّدِينَ وَأَخْذِهِمْ عَنْهُ. وَمِنْ كَلَامِهِمْ: بَشَّارٌ أَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ. وَسَمِعْنَا أَبَا عَبْدِ ٱللهِ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: إِنَّمَا سُمِّيَ ٱلْأَعْشَى صَنَّاجَةَ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ ٱلصَّنْجَ فِي شِعْرِهِ. قَالَ وَيُقَالُ بَلْ سُمِّيَ صَنَّاجَةً لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحِلْيَةِ شِعْرِهِ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ إِذَا

أَنْشَدْتَهُ أَنَّ آخَرَ يُنْشِدُ مَعَكَ. وَمِثْلُهُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ تُنْشِدُ أَقْصَرَ شِعْرِهِ عَرُوضًا وَأَلْيَنَهُ كَلَامًا فَتَجِدُ لَهُ فِي نَفْسِكَ هِزَّةً وَجَلَبَةً مِنْ قُوَّةِ ٱلطَّبْعِ.

اِنْقَضَى كَلَامُ عَبْدِ ٱللهِ وَرَجَعْنَا إِلَى ٱلْقَوْلِ فِي ٱلطَّبْعِ وَٱلتَّصْنِيعِ. فَإِذَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُصَنِّعًا فَإِنَّ جَيِّدَهُ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِ كَأَبِي تَمَّامٍ. فَصَارَ مَحْصُورًا مَعْرُوفًا بِأَعْيَانِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلطَّبْعُ غَالِبًا عَلَيْهِ لَمْ يَبِنْ جَيِّدُهُ كُلَّ ٱلْبَيْنُونَةِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبٍ كَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَمَنْ شَاكَلَهُ وَقَدْ نَصَّ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي بَعْضِ تَسْطِيرَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَكِيمَةَ ٱلشَّاعِرِ حِينَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي ٱلْفَرَسِ مِنْ قَصِيدَةٍ رَثَى بِهَا عَبْدَ ٱللهِ بْنَ ظَاهِرٍ:

فَلَهُ شَهَامَةُ سُودِنِيقٍ بَاكِرٍ وَحَوَافِرٌ حُفْرٌ وَرَأْسٌ صَنْتَعُ

وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ (بِحَوَافِرٍ حُفْرٍ وَصُلْبٍ صُلَّبِ) فَحَفَلَ بِهِ وَٱعْتَذَرَ لَهُ وَخَرَّجَ ٱلتَّخَارِيجَ ٱلْحِسَانَ وَذَكَرَ أَنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْحَافِرَ ٱلْمُقَعَّبَ وَنَحْوَهُمَا أَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْأَحْفَرِ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ كَانَ يَطْلُبُ ٱلْمَعْنَى وَلَا يُبَالِي بِٱللَّفْظِ حَتَّى لَوْ تَمَّ لَهُ ٱلْمَعْنَى بِلَفْظَةٍ نَبَطِيَّةٍ لَأَتَى بِهَا. وَٱلَّذِي أَرَاهُ أَنَّ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ أَبْصَرُ بِأَبِي تَمَّامٍ وَغَيْرِهِ مِنَّا وَأَنَّ ٱلتَّسْلِيمَ لَهُ وَٱلرُّجُوعَ إِلَيْهِ أَحْزَمُ. غَيْرَ أَنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ وَلَسْتُ رَادًّا عَلَيْهِ وَلَا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي أَرَادَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَبِي تَمَّامٍ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى ٱلصَّنْعَةِ مِثْلُ ٱلتَّطْبِيقِ وَٱلتَّجْنِيسِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا لَا مَعْنَى ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي هُوَ رُوحُهُ. وَأَمَّا ٱللَّفْظُ ٱلَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ إِنَّمَا هُوَ فَصِيحُ

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ٱدَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ اِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْمُقَعَّبَ اَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْاَخْفَرِ. فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ اِلَى مَا قُلْتُهُ فِي اَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَاِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّ اَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَاِنَّمَا هُوَ هٰذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ. وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ: كَمَا لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا اَعْرَابِيًّا فَاِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَاَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَٱسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ: وَٱللّٰهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْاَدَبِ غُرَبَاءُ. وَعَنْ غَيْرِهِ اَنَّ رَجُلًا قَالَ لِاَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَاَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا اَنْشَدَهُ: يَا اَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ. فَقَالَ لَهُ: وَاَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ. وَيُرْوَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ اَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاَجَابَهُمَا. وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ اِنَّمَا اَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ اَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ. وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ. وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ اَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ اِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا. وَمِنْ

اَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلٌ ٱلْغَنَوِيُّ. وَقَدْ قِيلَ اِنَّ زُهَيْرًا اَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ. وَمِنْهُمْ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ. وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ: قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكُ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْاَصْمَعِيِّ. وَسَاُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَاَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهْلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... اُطَاُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا اِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى ٱللّٰهُ اَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

فَلَوْ اَنَّ اَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى ٱلْوَطَنِ اَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَاَخِّرُ ٱلْعَصْرِ. وَمَا اَنْحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَتَّعِقُ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَاَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْاَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَغْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

اَيضًا بِمَدْحِهِ ٱلثَّنَاءَ عَلَيهِ فَيَكُونَ ذٰلِكَ عَلَى وَجهِهِ . وَٱلبَيتُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَٱلبَيتِ مِنَ ٱلأَبنِيَةِ وَٱلشِّعْرِ قَرارُهُ ٱلطَّبعُ وَسَمْكُهُ ٱلرِّوَايَةُ وَدَعَائِمُهُ ٱلقَلَمُ وَبَابُهُ ٱلدُّرْبَةُ وَسَاكِنُهُ ٱلمَعْنَى وَلَا خَيرَ فِي بَيتٍ غَيرِ مَسْكُونٍ . وَصَارَتِ ٱلأَعَارِيضُ وَٱلقَوَافِي كَٱلمَوَازِينِ وَٱلأَمْثِلَةِ لِلأَبنِيَةِ اَوْ كَٱلأَوَاخِيِّ وَٱلأَوْتَادِ لِلأَخبِيَةِ . وَاَمَّا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ فَإِنَّمَا هُوَ زِينَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَاُسْتُغْنِيَ عَنهَا . قَالَ ٱلقَاضِي عَلِيُّ بنُ عَبدِ ٱلعَزِيزِ ٱلجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلوَسَاطَةِ : ٱلشِّعْرُ عِلمٌ مِنْ عُلُومِ ٱلعَرَبِ يَشتَرِكُ فِيهِ ٱلطَّبعُ وَٱلرِّوَايَةُ وَٱلذَّكَاءُ ثُمَّ تَكُونُ ٱلدُّرْبَةُ مَادَّةً لَهُ وَقُوَّةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ اَسْبَابِهِ فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلخِصَالُ فَهُوَ ٱلمُحْسِنُ ٱلمُبَرِّزُ وَبِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنهَا تَكُونُ مَرْتَبَتُهُ مِنَ ٱلإِحْسَانِ . قَالَ وَلَسْتُ اَفْصِلُ فِي هٰذِهِ ٱلقَضِيَّةِ بَينَ ٱلقَدِيمِ وَٱلمُحْدَثِ وَٱلجَاهِلِيِّ وَٱلمُخَضْرَمِ وَٱلأَعرَابِيِّ وَٱلمُوَلَّدِ اِلَّا اَنِّي اَرَى حَاجَةَ ٱلمُحْدَثِ اِلَى ٱلرِّوَايَةِ اَمَسَّ وَاَجِدُهُ اِلَى كَثْرَةِ ٱلحِفظِ اَفقَرَ فَإِذَا ٱستَكشَفتَ عَنْ هٰذِهِ ٱلحَالَةِ وَجَدتَ سَبَبَهَا وَٱلعِلَّةَ فِيهَا اَنَّ ٱلمَطبُوعَ ٱلَّذِي لَا يُمكِنُهُ تَنَاوُلَ اَلفَاظِ ٱلعَرَبِ اِلَّا رِوَايَةً وَلَا رِوَايَةَ وَلَا طَرِيقَ اِلَى ٱلرِّوَايَةِ اِلَّا ٱلسَّمعُ وَمِلَاكُ ٱلسَّمعِ ٱلحِفظُ . وَقَالَ دِعبَلٌ فِي كِتَابِهِ مَنْ اَرَادَ ٱلمَدِيحَ فَبِٱلرَّغبَةِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلهِجَاءَ فَبِٱلبَغضَاءِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلتَّشبِيبَ فَبِٱلشَّوقِ وَٱلعِشقِ وَمَنْ اَرَادَ ٱلمُعَاتَبَةَ فَبِٱلِٱستِبطَاءِ : فَقَسَّمَ ٱلشِّعْرَ كَهٰذِهِ ٱلأَقسَامِ ٱلأَربَعَةِ وَكَانَ ٱلرِّثَاءُ عِندَهُ مِنْ بَابِ ٱلمَدحِ عَلَى مَا قَدَّمتُ . اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ ٱلعِتَابَ

بَدَلًا مِنهُ وَقَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلعُلَمَاءِ: ٱلشِّعرُ مَا ٱشتَمَلَ عَلَى ٱلمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِاستِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشبِيهِ ٱلوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضلُ ٱلوَزنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَن يَسلُكَ طَرِيقَةَ ٱلإِفصَاحِ وَٱلإِشَادَةِ بِذِكرِ ٱلمَمدُوحِ وَأَن يَجعَلَ مَعَانِيَهُ جَزلَةً وَأَلفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيرَ مُبتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقصِيرَ وَٱلتَّطوِيلَ فَإِنَّ لِلمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِن أَجلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرمَانَهُ وَقَد رَأَيتَ عَمَلَ ٱلبُحتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلخَلِيفَةَ كَيفَ يُقِلُّ ٱلأَبيَاتَ وَيُبرِزُ وُجُوهَ ٱلمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَد حُكِيَ عَن عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحتُم فَلَا تُطِيلُوا ٱلمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوتُم فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلفَرَزدَقُ عَلَى عَبدِ ٱلرَّحمَانِ ٱبنِ أُمِّ ٱلحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبدُ ٱلرَّحمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعنِي مِن شِعرِكَ ٱلَّذِي لَيسَ يَأتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنسَى أَوَّلُهُ وَقُل فِيَّ بَيتَينِ يَعلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعطِيكَ عَطِيَّةً لَم يُعطِكَهَا أَحَدٌ قَبلِي فَغَدَا عَلَيهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبْنُ بَطْحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سُبْلَ ذِي حَذَرٍ غُمْرِ
وَأَنتَ ٱبْنُ سَوَّارِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَى ٱلْعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقْتِنَا وَهُوَ خَطَاءٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَتَّجِهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ:

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيفَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ
لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخِوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهٰذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيضَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا مِمَّا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ
مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصَّوْلِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُـدُ فَوقَ ٱلنَّجمِ مِنْ كَرَمٍ

قَومٌ بِأَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَـدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيوَانِ على مَا عَلَيْهِ اَهلُ ٱلأَلْبَابِ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ اِنَّمَا هِيَ ٱلعَقْلَ وَٱلعِفَّةَ وَٱلعَدَالَةَ وَٱلشَّجَاعَةَ كَانَ ٱلقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

اَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرَ مَالُهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلعِفَّةِ لِقِلَّةِ اِمعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَاَنَّهُ لَا يَنْفَـدُ فِيهَا مَالُهُ بِٱلسَّخَاءِ لِاَهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

اَرَادَ اَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي اَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِاَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ

لِاِنْكَارِ ضَيمٍ اَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى اَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهُ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ بِٱلوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلاِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰـذَا وَاِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (اَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ اَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَاَقْسَامَهَا وَكُلَّ دَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ اَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلِانْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَاِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَاَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ اَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَاِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى اَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ اِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أُتُوهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةَ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلقَائِدُ ٱلجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنهَا مِنَ ٱلإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمدَحُ ٱلقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلعَدْلَ وَٱلإِنصَافَ وَتَقرِيبَ ٱلبَعِيدِ فِي ٱلحَقِّ وَتَبعِيدَ ٱلقَرِيبِ فِي ٱلأَخذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلقَوِيِّ وَٱلمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلفَقِيرِ وَٱلغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلوَجْهِ وَلِينِ ٱلجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلحُدُودِ وَٱستِخرَاجِ ٱلحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلمَظَالِمِ. وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنسَانٍ بِٱلفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلجَمَالِ وَٱلأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنيَا وَكَثْرَةِ ٱلعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنكَرَهُ جُملَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلمَدْحُ بِٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفسَانِيَّةِ أَشرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنكَارُ مَا سِوَاهَا جُملَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلحُذَّاقُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيرِهِ:

أَنتَ نِعْمَ ٱلمَتَاعُ لَوْ كُنتَ تَبقَى ... غَيرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلإِنسَانِ

لَيسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنكَ عَيبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بِمَدْحِ ٱلرَّسُولِ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِغْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرَّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْإِخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِـهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَـدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْـدٍ   تَلَقَّـاهَا عُرَابَـةُ بِٱلْيَمِـينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَـةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَـهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِـلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَـهُ ٱلرَّدَى   وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَـكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْـكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُـهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُـكَلَّمُ إِلَّا حِـينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ ٱللّٰهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللّٰهُ رَافِعُهُ   وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللّٰهِ مُعْتَصِماً   فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ   أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ . فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ : فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْراً مِنْهُ وَأَنْشَدَ :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ   شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ   ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ : بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى :

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا   وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ :

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ   وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعبِلٌ بل قَولُ ابي ٱلطَّحَانِ ٱلقَينِيِّ

اَضاءَتْ لَهمْ اَحسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجى ٱللَّيلِ حتَّى نَظَّمَ ٱلجزْعَ صَاحِبُهْ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ اَبِي ٱلطَّحَانِ قَومٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبيتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكَ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبيْتُ ابِي ٱلطَّحَانِ اَشعَرُهَا . قَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيرٍ :

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ اَبِيهِ اَنَّهُ قَالَ : اَجْمَعَ اَهْلُ ٱلعِلْمِ اَنَّ بَيْتَيْ اَبِي نُوَاسٍ اَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

اَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلاَيدِي بِحُجْزَتِهِ
اِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى اَنيَابِهِ كَلَحَا

وَكَلتَ بِالدَّهرِ عَيناً غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلوَاحِدِ عَنْ اَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلاَعْرَابِيِّ يَقُولُ : اَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَولُ اَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْاَلُ ٱلاَيَّامُ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ
وَاَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِأَبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ

وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ

مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ

يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ

كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُـهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُـهْ
يُعَذِّبْنَـهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِـلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ : أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ :

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل : بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ اَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَاَجْمَلُوا

فَقَالَ اَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ اَضْحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ اَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ اَبِي حَفْصَةَ فِي اَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَاَوْمَا اِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ اَسَرَّ اِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ اِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ اَنْشِدْنِي اَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ اَبِي حَفْصَةَ فِي اَبِيكَ فَاَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا اِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

اِنْ عُدَّ اَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَاِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي اَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ اَبَا ٱلْوَلِيدِ اِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى اَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ اَبُوكَ وَاَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَاَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي اَيُّ يَوْمَيْهِ اَفْضَلُ

اَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ اَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا اِلَّا اَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ اِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ اَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ اَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ اِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ اِلَّا اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ . فَمِنْ اَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

اِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ اَعَزُّ وَاَطْوَلُ

قَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ : اَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ اَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ اَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ اِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَاِنْ نَحْنُ اَوْمَأْنَا اِلَى ٱلنَّاسِ وَقَّفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ اِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا ... مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْـلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَـا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَـةً مُضَرِيَّةً

هَتَـكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيـلَةٍ ذُرَى مِنْـبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ بَـكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْـكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُـلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِافْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَـةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْـكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيبَنَّ إِلَّا عِنْـدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْـكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَـكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَـكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٌ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءُ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وُلْدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ : وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ أَبَى ٱللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفخَرُ بِوِلَايَةِ مِنْ خَزيمَةَ بنِ خَازِمِ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ ارُومَتِي وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

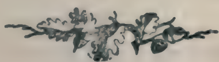
وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ابِي ٱلْحَسَنِ يَفخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ قَبْلَ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ
ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا ازْمَةٌ ازَمَتْ وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَرَاوِيدِ
سُيُوفُكُمْ افْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ فِي يَوْمِ ذِي قَارَ اذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرِ بْنِ آسْحَمَ يَصِفُ اسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذْقَاتِ فِينَا يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ اسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ. وَمِنْ اجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسهِ)

وَلَيسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدْحِ فرقٌ اِلَّا اَنْ يُخْلَطَ بِٱلرِّثَاءِ شَيءٌ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيتٌ مِثْلَ كَانَ اَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ اَوْ مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعْلَمَ اَنَّهُ مَيتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ اَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطاً بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْاَسَفِ وَٱلِٱسْتِعْظَامِ. اِنْ كَانَ ٱلْمَيْتُ مَلِكًا اَوْ رَئِيسا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيفَةَ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ

وَلَمْ تَلفُظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْاَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ بَذِيُّ ٱلْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَاِلَى هٰذَا ذَهَبَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ اَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: اَنْعَاهُ اِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْاِنسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَاَنَّنِي اَفطَرْتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ اِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَاَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْاِفطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ اَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفظٍ رَدِيٍّ غَيرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفسِ. وَمِنْ اَفضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ

ٱلْحسَينِ بْن مَطِيرٍ يرثي معن بْنَ زَائِدَةَ وَيُروَى لِأَبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا أَدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالْ وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالْ

هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا ٱلْأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي أَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ أَوَّلُهَا:

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ ٱلْأَمَلْ وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا أَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ:

أَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْأَحْوَلِ أَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي مُحَاقَةَ أَعْشَى بَاهِلَةَ إِنَّمَا هِيَ لِأُبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمُهَا ٱلدَّعجَاءُ. وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ ٱللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ ٱلْوَاجِبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ ٱلْآخِذَ فِي ٱلرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ ٱلنَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلِٱهْتِمَامِ بِٱلْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ ٱلطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ ... وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ ٱلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ ٱلنَّبِيِّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اِغْبَرَّ آفَاقُ ٱلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ ... شَمْسُ ٱلنَّهَارِ وَأَظْلَمَ ٱلْعَصْرَانِ

وَٱلنِّسَاءُ أَشْجَى ٱلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ ٱلْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ ٱللهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضُعْفِ ٱلْعَزِيمَةِ

فَٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ ٱلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ ٱلْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ ٱلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا ٱبْنَةَ ٱلْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا ... تَعْجَلِي بِٱللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ ٱلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ ٱمْرَأَةً لِضِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ ٱلصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ نَخلٌ مُجَوَّدٌ اِذْ ذَكَرَ ٱلمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ   عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرُسٍ فَانْ كَانَ اَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَاِنْ كَانَ اَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ اِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعَفِّي كُلَّ اِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحُسْنِ عَلَى سُوءِ اَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ   وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفظَ ٱلِاسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَاَنَا اَقُولُ اِنَّ اَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ اَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ اِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ اَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ اَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ اَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى اَتَى عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَاَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَاُعْطِيتَ فَٱشْكُرِ

ٱللّٰهَ عَلَى مَا أُعْطِيتَ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَ خَلِيفَةَ ٱللّٰهِ وَأُعْطِيتَ خِلَافَةَ ٱللّٰهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعْطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللّٰهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ ٱلْأُمُورِ :

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ
كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلْأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ
بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا
لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ. وَٱتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَٱحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ
عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ
ٱذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّ
نْيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّـةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ:

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْـلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ بُعَيْـدَ ٱلْـكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَإِنَّ مَـكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِـكُلِّ مَـكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَـكُنِ ٱلْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

أُجِلُّ قَدرَكِ اَنْ تُسمَي مُؤَبَّنَةً وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلعَرَبِ

ورِثَاء ٱلأَطفَالِ اَنْ يذكُرَ مَخَايِلَهُمْ وَمَا كَانَتِ ٱلفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ فِيهِمْ مِمَّنْ تَحَزَّنَ لِمُصَابِهِمْ وَتَفَجَّعَ بِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو تَمَّامٍ فِي ٱبْنَي عَبدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَكُونَ مَدحُهُ شَرِيفًا وَٱقتِضَاؤُهُ لَطِيفًا وَهِجَاؤُهُ اِنْ هَجَا عَنِيفًا فَاِنَّ ٱلِاقْتِضَاءَ ٱلخَشِنَ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ ٱلمَنْعِ وَٱلحِرْمَانِ وَدَاعِيَةَ ٱلقَطِيعَةِ وَٱلهِجْرَانِ. وَقَوْمٌ يُدرِجُونَ ٱلعِتَابَ فِي ٱلِاقْتِضَاءِ وَٱلِاقْتِضَاءَ بِٱلعِتَابِ وَاَنَا اَرَى غَيْرَ هٰذَا ٱلمَذْهَبِ اَصْوَبَ فَٱلِاقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ ٱلتَّلَطُّفِ فِيهِ اَجْوَدُ فَاِنْ بَلَغَ ٱلاَمْرُ ٱلعِتَابَ فَاِنَّمَا هُوَ طَلَبُ ٱلاِبْقَاءِ عَلَى ٱلمَوَدَّةِ وَٱلمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَمُضَادَّةٌ لَا يَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ اقْتِضَاءٌ اِلَّا اَنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هٰذَيْنِ وَسَاوَوْا بَيْنَهُمَا. فَمِنْ اَحْسَنِ ٱلِاقْتِضَاءِ عَلَى مَا تَخَيَّرُوهُ وَنَحَوْتُ اِلَيْهِ قَوْلُ اُمَيَّةَ بْنِ اَبِي ٱلصَّلْتِ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ جُدْعَانَ:

ءَاَذْكُرُ حَاجَتِي اَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ اِنَّ شِيمَتَكَ ٱلحَيَاءُ

وَعِلْمُكَ بِٱلحُقُوقِ وَاَنتَ فَرْعٌ لَهُ ٱلحَسَبُ ٱلمُهَذَّبُ وَٱلسَّنَاءُ

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ ٱلخُلُقِ ٱلجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

اِذَا اَثنَى عَلَيكَ ٱلْمَرْءُ يوماً كَفاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَانْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ إِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَاشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ إِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا اَلُومُكَ اِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَامَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْاَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا اِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ أُرَجِّيكَ لِمَا اَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ اَصْبَحْتَ مِنْ اَوْكَدِ م اَسْبَابِي اِلَى ٱلْفَقْرِ

اَتَرْضَى لِي بِاَنْ اَرْضَى بِتَقْصِيرِكَ فِي اَمْرِي

وَقَدْ اَفْنَيْتُ مَا اَفْنَيتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْاَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي بَقَايَا اُمَنِّي ٱلنَّفْسَ فِيهَا ٱلْاَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْاَيَّامِ حَتَّى اِذَا ٱنْقَضَتْ اَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَاَنِّي نَازِفٌ ٱلْبِئْرِ طَالِبًا لِاِجْمَامِهَا اَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ اَبْقَى مَا اَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ اَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ اَمْلَحِ مَا رَاَيْتُ فِي ٱلْاِقْتِضَاءِ وَٱلْاِسْتِبْطَاءِ قَوْلُ اَبِي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ ... فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ

سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا ... فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً ... لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ

وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا ... بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ

وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا ... آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ

لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي ... أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَاحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْاشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ ابُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ انْ اسْتَرِيبَا

وَاكْرَهُ انْ اتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا

أُكَذِّبُ ظَنِّي بِانْ قَدْ سَخِطْتَ م ... وَمَا كُنْتُ اعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ اكُنْ ... اذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَاشْكُو ٱلْخُطُوبَا

وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ ٱنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا اوْ مُصِيبَا

ايُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ م ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَاغْيَدَ انْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَانْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا

ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَاوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا

وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا

يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ الَّا انْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا

أُعِيذُكَ انْ اخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ... تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ الَيْكَ تَقَدَّمَا

الَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ ... هِيَ ٱلْانْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ ٱنْجُمَا

فهذا أعتبُ كما قالَ :

عِتابٌ بأطرافِ القوافي كأنَّهُ ... طِعانٌ بأطرافِ القنا المتكسّرِ

وقد نحوتُ أنا بعضَ هذا النحوِ في كلمةٍ عاتبتُ بها القاضي جعفرَ بنَ عبدِ اللهِ الكوفيَّ قلتُ فيها :

وقد كنتُ لا آتي إليكَ مخايلًا ... لديكَ ولا أُثني عليكَ تصنّعا

ولكن رأيتُ المدحَ فيكَ فريضةً ... عليَّ إذا كانَ المديحُ تطوّعا

فقمتُ بما لا يخفى عنكَ مكانُهُ ... منَ القولِ حتّى ضاقَ ممّا توسّعا

إلى أنْ أقولَ :

فواللهِ ما طوّلتُ باللومِ فيكمُ ... لساني ولا عرّضتُ للذمِّ مسمعا

ألوذُ بأكنافِ الرجاءِ وأتّقي ... شماتَ العدا إنْ لم أجدْ فيكَ مطمعا

ومنْ معاتباتِ أبي تمّامٍ قولُهُ لابنِ عبدِ الملكِ الزيّاتِ :

تقطّعتِ الأسبابُ إنْ لمْ تعرْ لها ... قوًى أو يصلْها منْ يمينكَ واصلُ

سوى مطلبٍ ينضى الرجاءُ بطولهِ ... وتخلقُ أخلاقَ الجفونِ الوسائلُ

وقدْ تألفُ العينُ الدجى وهوَ قيدُها ... ويُرجى شفاءُ السمِّ والسمُّ قاتلُ

إلى قولهِ :

وإنَّ المعالي يسترمُّ بناؤُها ... وشيكًا كما قدْ تسترمُّ المنازلُ

منحتُكها تشفي الجوى وهوَ لاعجٌ ... وتبعثُ أشجانَ الفتى وهوَ ذاهلُ

تُردُّ قوافيها اذا هي أرسلت هوامل مجدِ القومِ وهي هواملُ
فكيف اذا حلّيتها بحُليّها تكون وهذا حسنها وهي عاطلُ

وقال ابنُ الروميّ لابي الصغير يعاتبهُ في قصيدةٍ جيّدةٍ :

عذرتك لو كانت سماءٌ تقشّعت سحابتُها او كان روضاً تصوّحا
فيا لك بحرًا لم اجد فيه مشرعاً وان كان غيري واجدًا فيه مَسبحا
مديحي عصا موسى وذلك انني ضربتُ به بحرَ الندى فتضحضحا

الى ان يقول :

سأمدح بعض الباخلين لعلّهُ اذا اطّرد المقياس ان يتسمّحا

فهذا هو الذي لا يُبلغُ جودةً ولا يُجارى سبقاً. على ان البحتريّ قد تقدّم الى بعض المعنى في قوله للفتح بن خاقان :

غمامٌ خطا في صوبهِ وهو مسبلُ وبحرٌ عدا في فيضهِ وهو مُنعِمُ
وبدرٌ اضاء الارض شرقاً ومغربًا وموضع رحلي منهُ اسودُ اقتمُ
وما بخل الفتحُ بنُ خاقانَ بالندى ولكنّها الاقدارُ تعطي وتحرمُ

فامّا ابو الطيّب فكانت في طبعهِ غلظةٌ وفي عتابهِ شدّةٌ وكان كثيرَ التحاملِ ظاهرَ الكبرِ والانفةِ وما ظنّك بمن يقولُ لسيفِ الدولةِ :

يا اعدلَ الناسِ الّا في معاملتي فيك الخصامُ وانت الخصمُ والحكَمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً ان تحسب الشحمَ في من شحمهُ ورمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظرهِ اذا استوت عنده الانوارُ والظُلَمُ

وفيها يقولُ :

إِذَا رَأَيتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً　　فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ مُبتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلْقُبْحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَٱلْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ　　وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ　　لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمُ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ

وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ　　إِنَّ ٱلْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ　　وَٱللّٰهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلْكَرَمُ

مَا أَبْعَدَ ٱلْعَيبَ وَٱلنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي

أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيْبُ وَٱلْهَرَمُ

وَلَيسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ ٱنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ ٱلصَّوْلِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ　　فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا

وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ ٱلزَّمَانَ　　فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا

وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ　　فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ ٱلْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ ٱلْعِتَابِ قَوْلُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ　　وَأَنتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءِ

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ　　وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ　　إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ　　وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ　　إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى　　يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتُنْكِبَنَّ بِحَسْرَةٍ　　وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ　　حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ　　مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ　　وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا　　صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ　　وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ　　فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا　　فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ　　ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
اَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيِّنٌ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ اَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسهِ)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
اَ اَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
اَ اَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا ۞ فَتُصْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرَّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ ۞ لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ ۞ لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ ۞ وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جُمِعَتْ أَحْسَابُهَا ۞ يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا اطلَقَ عُمَرُ بنُ ٱلخَطَّابِ ٱلحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ اِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلهِجَاءَ ٱلمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلهِجَاءُ ٱلمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلمُقْذِعُ اَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ اَفضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَشرَفُ وَتَبْنِي شِعرًا عَلَى مَدحٍ لِقَومٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: اَنتَ وَٱللهِ يَا اَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ اَعلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنَّنِي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ اَنَلْ مِنْ اَعرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي اِلَى مَنْ اَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلمَهْمُوزَةَ وَهِيَ اَخبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا اَوْ مِنْ اَجلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلاَحمَرُ: اَشَدُّ ٱلهِجَاءِ اَعَفُّهُ وَاَصدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً اُخرَى: مَا عَفَّ لَفظُهُ وَصَدَقَ مَعنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلوَسَاطَةِ: فَاَمَّا ٱلهَجْوُ فَاَبلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفظُهُ وَاَسرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفسِ فَاَمَّا ٱلقَذفُ وَٱلفُحشُ فَبَابٌ مَحضٌ وَلَيسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ اِلَّا اِقَامَةُ ٱلوَزنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ اِلَيهِ اِعجَابُ ٱلحُذَّاقِ مِنَ ٱلعُلَمَاءِ وَفُرسَانِ ٱلكَلَامِ بِقَولِ زُهَيرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعلَمُ:

وَمَا اَدرِي وَسَوفَ اِخَالُ اَدرِي   اَقَومٌ آلُ حِصْنٍ اَمْ نِسَاءُ

فَاِنَّ هٰذَا عِندَهُمْ مِنْ اَشَدِّ ٱلهِجَاءِ وَاَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعدَ وَقعَةِ حُسًا سَاَلَ بَنِي ذُبيَانَ مَا قُلتُمْ لِعَامِرِ بنِ ٱلطُّفَيلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا   فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ   وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إنْ كانَ مِمَّنْ لا يُوقِظُهُ التَّلْوِيحُ وَلا يُؤْلِمُهُ إلا التَّصْرِيحُ فذلِكَ. وَلِهٰذِهِ العِلَّةِ اخْتَلَفَ هِجاءُ أبي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجاءُ أبي الطَّيِّبِ فِيهِ اخْتِلافٌ لاخْتِلافِ مَرَاتِبِ المَهْجُوِّينَ فَمِنَ التَّفْضِيلِ فِي الهِجاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمانِ الرَّقِّيِّ:

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ اليَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى ... يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ الفَتَى القَيْسِيِّ إتْلافُ مالِهِ ... وَهَمُّ الفَتَى العَبْسِيِّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلا يَحْسَبِ التَّمْتَامُ أنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أهْلَ المَكَارِمِ

وَمِنَ الاخْتِصارِ وَالاسْتِخْفافِ قَوْلُ زِيادٍ الأعْجَمِ:

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإنَّمَا ... يُقَالُ لِشَيْخِ الصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أنْتُمُ إنَّا نَسِينَا مَنَ أنْتُمُ ... وَرِيحُكُمُ مِنْ أيِّ رِيحِ الأعَاصِرِ
أأنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ الرِّيحِ وَالدَّبَا ... فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى اللهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ ... بَقِيَّةَ خَلْقِ اللهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إلا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إلَّا مَدَقَّ الحَوَافِرِ

أخَذَ مِنْهُ الطِّرِمَّاحُ هٰذا المَعْنَى فَقَالَ:

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا ... وَضَبَّةُ إلَّا بَعْدَ خَلْقِ القَبَائِلِ

وَمِنَ الاحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ:

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ ... وَتَيْمًا قُلْتَ أيُّهُمَا العَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ التَّهَكُّمِ قَوْلُ أبي هَفَّانَ:

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ ... وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ ... شَوْقٌ اِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ ... يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْاَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ . وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يُسْلَبَ ٱلْاِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْاُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهُ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا اِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ ... مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْاَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنِ اضْطَرَّهُ ٱلْمِقْدَارُ إِلَى ذٰلِكَ وَأَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ أَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَإِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَأَمَّا مَعَ ٱلْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ ... إِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ أَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

اَللهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا ... جَهْدُ ٱلْأَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تُمِدُّنِي ... أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ ٱرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبا جعفرٍ دَعابَةٌ بِتُّ عَلَى نارِهَا
وَإِنْ تأَذَّيتَ فيا ربَّما تأَذَّتِ ٱلعَينُ بِأَشْفارِهَا

وَأَجلُّ مَا وَقعَ فِي ٱلِاعتِذارِ مِنْ مَشهُورَاتِ ٱلعَرَبِ قَصائدُ ٱلنَّابغةِ ٱلثَّلاثُ إِحداهُنَّ «يا دارَ ميَّةَ بِٱلعَلْيَاءِ بِٱلسَّنَدِ» يقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحتُ كَعبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلمُؤمِنِ ٱلعَائِذَاتِ ٱلطَّيرَ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتيتَ بِهِ إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقوامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعتَذِرًا مِنْ مَدحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحتَجًّا بِإِحسانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفتُ فَلَمْ أَترُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً وَلَيسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنتَ قَدْ بُلِّغتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ ٱلوَاشِي أَغَشُّ وَأَكذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ ٱلأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَومٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَترُكَنِّي بِٱلوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذِّبٌ وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكِ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكِ لِي إِلَّا إِلَيْكِ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِاعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ

فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ   وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِانْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :
وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّـةَ اي جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ ٱلشِّرَادِ فَمَعْنَى ٱعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ ٱحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَـهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اَوِ ٱلْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْاَمْرُ وَٱحْتَجَزَ اَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْاَعْشَى اَسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيـهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ ٱلْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَٱللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ. فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُحْكَ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ. فَاَمَّا مَنْ شُقُّوا بِٱلْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَٱسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ ٱلدِّيَاتِ وَٱلنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ أَبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلسَّبُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَٱسْتَهَانَتِ ٱلْعَرَبُ بِهِمْ وَٱنْطَبَعَ ٱلْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنْذِرِ. وَٱلْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ ٱلْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ ٱلْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِٱلْجَمَلِ ٱلْحَبِطِ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا ٱلسَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ ٱلْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ هِيَ ٱلَّتِي شَأَمَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ ٱلْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ ٱلرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْقَتْلَ سُبَّةً … إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَٱلسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَيْنَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَبْعَثِ ٱلرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ ٱلْجَاحِظُ لَمْ تُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَحْظَا فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا أَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ ٱللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هٰذِهِ ٱلنِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا ٱللهُ مُضَاعَفَةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِٱلِاسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَاَحْيَا ٱللّٰهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ اِنْ جِئْتَهُ ... نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
اِذَا اَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا ... فَنَبِّهْ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ ... وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ اِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

اِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِاَنَّهَا ... قَطَعَتْ اِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ اَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ ... بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِاَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَاَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

اَ بَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ ... وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْاَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ ... حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ اِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَاَنَّهُمْ ... فِي ٱلْعِزِّ اُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ ... كَبَنِي زُرَارَةَ اَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ ... وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ ... بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمُ وَٱفْتَخَرَتْ بِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمَ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجْدُّونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو ... أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ أُعطِيَ مِائَةَ اَلفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ . وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ اَحنَفَ . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَامَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ

وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهُوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبِقُنِي اَنتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيفًا فِي

قفرةٍ يَعني ٱلذِئبَ اِلَّا هُوَ جائعٌ فهوَ لا يُبقي عليَّ لِأَنِّي اَقتلُهُ قبلَ اَنْ يشبَعَ مِن لَحمِي . وَمِنْ اَناشيدِهِمْ :

اَبوكَ ٱلَّذِي نُبِّئتُ يَحبِسُ خَيلَهُ غداةَ ٱلنَّدَى حتَّى يَجِفَّ لها ٱلبَقْلُ

قَالُوا اِذَا اَخذَ مطرُ ٱلصَّيفِ ٱلأَرضَ اَنبَتَتْ بقلًا في اُصولِ بقلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلأَخضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلغَمِيرُ فتأكلُهُ ٱلإِبلُ فيأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلخَيلِ فعابَهُ بِٱلجَهلِ بِٱلخَيلِ . قَالَ ٱلأَصمَعِيُّ : هٰذَا ٱلقَوْلُ خطأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعرِفَةِ ٱلخَيلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا اَكَلَهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ . وَقَالَ سُلَيمانُ بنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ وَذِكرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

اُولٰئِكَ قَومٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ اَرَادَ لَمْ يُغمِدُوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ اَضرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ اِلَّا بَعْدَ اَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : اَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلقَتْلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ اَلقَكَ وَلَمْ اُحسِنْ اِلَيْكَ اَيْ اِلَّا وَقَدْ اَحسَنْتُ اِلَيْكَ وَٱلقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلأَضدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ دَعِ ٱلكَلْبَ يَنْبَحْ اِنَّمَا ٱلكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى :

دَفَعْتُ اِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ اَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا اَبَا لَكَ نَابِحُ

وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ ٱللهِ :

فَجُنِّبْتَ ٱلجُيُوشَ اَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا زَيْنَبَ قَالَ: إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا الْأَمْطَارُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ   فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

أَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ. وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ   أَدْعُو خُبَيْبًا كَمَا تُدْعَى ٱبْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَاءِ وَهُوَ ٱبْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ ٱبْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ أَعْلَاهُ. وَزَادَ أَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ   عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ:

كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ   دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ. فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى الثِّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ. وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا الْبَابِ:

تفرَّقتْ غنمي يوماً فقلتُ لهَا   يا ربِّ سلّطْ عليها الذئبَ والضَّبعا

قِيلَ إنهما إذا اجتمعا لا يؤذِيانِ وَيشغَل كلٌّ مِنهما الآخرَ وإذا تفرَّقا أدَيا وقِيلَ: إنَّ معناهُ في الدُّعاءِ عليها: قتل الذِئبُ الأحياءَ عبثاً وأكلتِ الضبعُ الأمواتَ فلَمْ يَبقَ مِنها بقيةٌ. وَمِن لَطِيفِ ما وَقعَ في هذا الباب قولُ النَّابغةِ الذُّبيانيّ:

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثُّنيانُ عنِّي   صُدودَ البكرِ عَنْ قَرمِ الهِجانِ

ولَمْ يُرِدْ أنَّهُ يَغلِبُ الثُّنيانَ ولا يغلِبُ الفَحلَ لكِنْ أرادَ التَّصغيرَ بالَّذِي هاجاهُ فجعلَهُ ثُنياناً. وقالَ آخرُ:

وَمَنْ يَفخَرْ بمِثلِ أبي وجدِّي   يَجِي قبلَ السَّوابِقِ وهوَ ثانِ

أرادَ وهوَ ثانٍ من عِنانِهِ لا يُسبَقُ متمهِّلاً. وممَّا يُمدَحُ بِهِ ويُذَمُّ قولُهُمْ بَيضَةُ البَلَدِ فمَنْ مدحَ أرادَ أنَّها أصلُ الطَّائِرِ ومَنْ ذمَّ أرادَ أنَّها لا أصلَ لهَا. قالَتْ أختُ عَمرِو بنِ عَبدِ وُدٍّ في عليٍّ لمَّا قتلَ أخاها:

لَوْ كانَ قاتِلُ عَمرٍو غيرَ قاتِلِهِ   لَقَدْ بكيتُ عليهِ آخِرَ الأبَدِ

لكِنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا يُعابُ بِهِ   مَنْ كانَ يُدعى قديماً بيضةَ البَلَدِ

فهذا أمدحُ كما تراهُ وقالَ الرَّاعِي النُّميرِيُّ يَهجُو عَدِيَّ بْنَ الرِّقاعِ العامِلِيَّ:

لَوْ كُنتَ مِنْ أحدٍ تُهجى هجَوتُكُمُ

يا ابْنَ الرِّقاعِ ولكِنْ لَستَ مِنْ أحَدِ

تأبَى قُضاعَةُ أنْ تَرضى بِكُمْ نَسَباً

وابنا نِزارٍ فأنتُمْ بيضَةُ البَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلِٱرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ . وَٱلِٱرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ:

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ اَوْ نَبَا حَدُّهُ

لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ

فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ

نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ

كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا

وَيَقْطَعْنَ اَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ

وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ اَنْفِهِ

اِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْاَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ

اِذَا شَغَلَ ٱلْاَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَاَعْظَمُ اَرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ اَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ. وَقِيلَ: اَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ اَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْاَرْتِجَالِ وَهُوَ اَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِاَرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي اِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَاَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا اَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي   اَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ اَكُولٍ لِحَيَاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَاِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ فَاِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلتَفَتَ اِلَيْهِ : وَٱللّٰهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَاَيْتَ فَٱعْتَذَرَ اِلَيْهِ فَحَلَفَ : اِنْ كُنْتُ اِلَّا مَازِحًا . وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ اَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ اَهْلِ زَمَانِهِ فِي اَشْيَاءَ اِلَّا اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَاِظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ اَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ اَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ اَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ اَجِيزُونَا : بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا . فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ اَنْتُمْ فَاَنْشَدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا . فَاَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي اَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ : هَلْ رَاَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

اِنَّمَا يَبْكِي عَلَى ٱلْمُغْـ ـتَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ اَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ . فَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِارْتِجَالُ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ اَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَتُهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَأَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: الْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ الْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهَةِ وَالِارْتِجَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ إِذْ كَانَتِ الْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرَّوِيَّةِ وَالْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ السَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى اَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ اَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا اَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ اِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

اَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ   اَمَعْشَرَ تَيْمٍ اَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا

اَيَا رَاكِبًا اِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ   نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ اَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَاَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ اَلْفَ نَاقَةٍ فَاَبَوْا اِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَاِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ   وَاِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا اَيْقَنَ بِالْمَوْتِ :

اَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي

وَلَمْ اُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي

اَبَا مُنْذِرٍ اَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ اَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَاَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ الصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ اِذْ يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : اَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : اَنْشِدْنِي قَوْلَكَ اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ عُبَيْدُ   فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَقَةِ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ   جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعَرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكَمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلْيَكُنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ابِي فَنَنٍ:

وَانَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

االُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِاتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَايَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ انْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ اِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَاِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ اِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ٱلْقُوَّةَ عَلَى ٱلنُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ ٱلْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ ٱلْعَجَّاجِ عَنِ ٱلْفَحْلِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ ٱلرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى ٱسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَٱسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِٱلسِّحْرِ . وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ ٱلشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ ٱلشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ وَيَسْمَعَ ٱلْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ ٱلْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ ٱلْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَٱلنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَٱلنَّسَبَ وَأَيَّامَ ٱلنَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَنَاقِبِ وَٱلْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ٱبْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنَّمَرِيُّ وَٱسْمُهُ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِٱلْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطُّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقَامِ مَقَالٌ . وَشِعْرُ ٱلشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ وَغَزْلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَمْرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي قَصَائِدِ ٱلْحَفْلِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ ٱلسَّمَاطَيْنِ . يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ ٱلطَّرِيقِ عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحَكَّكًا مُعَاوَدًا فِيهِ ٱلنَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ . وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَٱلْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ .

وَٱلْمُتَأَخِّرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ كَمَا لَا يَنْفَعُ ٱلْمُتَقَدِّمَ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَّرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ٱلسَّبْقِ فَعَلَيْهِ دَرَكُ ٱلتَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ ٱلْإِجَادَةِ وَٱلزِّيَادَةِ . وَلَا يَكُونُ ٱلشَّاعِرُ حَاذِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظَرَهُ فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثْبِتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونَ بِٱلرَّكِيكِ مُطَّرِحًا لَهُ رَاغِبًا عَنْهُ . فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ أَلْفِ رَدِيٍّ . وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ ٱخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ :

أَذُودُ ٱلْقَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مَرْجَانَهَا جَانِبًا وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا ٱلْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا ٱلْفِعْلَ وَيُبْقِي ٱلْجَيِّدَ وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا سَهُلَ وَمِنَ ٱلْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعْرَفُ بَدِيًّا. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ   وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصِّمَيْرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ   وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصِّمَيْرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَاِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ اَصْفَى كَمَا يُقَالُ اَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ اِذَا ٱنقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ ٱلْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ . وَاُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى اُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحِمَ ٱلصَّبِيُّ اِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ . فَاِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ اِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْاِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ اَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى ٱلرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِيِّ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ ٱلسَّلَمِيِّ فَقَالَ : اِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسَالَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا ٱنصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَاِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْاَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فَتَشحَذُ ٱلقَرائِحَ وَتُنَبِّـهُ ٱلخَواطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ ٱلكَلامِ وَتُسهِّلُ طَرِيقَ ٱلمَعنَى لِكُلِّ ٱمرِئٍ بِحَسَبِ تَدبِيرِ طَبعِـهِ وَٱطِّرادِ عادَتِهِ. وَسيأتِي ذٰلِكَ فِي اَقاوِيلِ ٱلعُلَماءِ بِمَا ارجُو اَنْ يَكُونَ فِيـهِ هِدَايَةٌ اِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعالَى

قَالَ بَكرُ بنُ ٱلنَّطَّاحِ ٱلحَنَفِيُّ: ٱلشِّعرُ مِثلُ عَينِ ٱلمَاءِ اِنْ تَرَكتَها نَضَبَتْ وَاِنِ ٱستَهتَنْتَها هَتَنَتْ. وَلَيسَ مُرادُ بَكرٍ اَنْ تَستَهتِنَ بِٱلعَمَلِ وَحدَهُ لِاَنَّا نَجِدُ ٱلشَّاعِرَ تَكِلُّ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثرَةِ ٱلعَمَلِ مِرارًا وَتَنزِفُ مادَّتُهُ وَتَنفَدُ مَعانِيهِ فَاِذَا جَمَّ طَبعُـهُ اَيَّامًا وَرُبَّمَا زَمانًا طَوِيلًا ثُمَّ صَنَعَ ٱلشِّعرَ جَاءَ بِكُلِّ آبِدَةٍ وَاَتَىهم بِكُلِّ قَافِيَـةٍ شَارِدَةٍ وَفُتِحَ لَهُ مِنَ ٱلمَعانِي وَٱلاَلفَاظِ مَا لَوْ رَامَهُ مِن قَبـلُ لَٱستُغلِقَ عَلَيهِ وَاُبهِمَ دُونَهُ. لٰكِنْ بِٱلمُذاكَرَةِ مَرَّةً فَاِنَّهَا تَقدَحُ زِنادَ ٱلخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عُيُونَ ٱلمَعانِي وَتُوقِظُ اَبصارَ ٱلفِتنَةِ وَبِمُطَالَعَةِ ٱلاَشعَارِ كَرَّةً فَاِنَّهَا تَبعَثُ ٱلحَسَدَ وَتُولِدُ ٱلشَّهوَةَ. وَسُئِلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ كَيفَ تَفعَلُ اِذَا ٱنقَفَـلَ دُونَكَ ٱلشِّعرُ. فَقَالَ: كَيفَ يَنقَفِلُ دُونِي وَعِندِي مَفاتِحُـهُ. قِيلَ لَهُ: وَعَنهُ سَاَلتُكَ مَا هُوَ. قَالَ: ٱلخُلُوُّ بِذِكرِ ٱلاَحبابِ وَلَعَمرِي اِنَّهُ اِذَا ٱنفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ ٱلقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ ٱلبَابِ وَحَطَّ رِجلَهُ فِي ٱلرِّكَابِ عَلَى اَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ ٱلمَدحِ وَٱلهِجَاءِ وَاِنَّمَا كَانَ وَاصِفَ اَطلَالٍ وَنَادِبَ اَظعانٍ وَهُوَ ٱلَّذِي اَخرَجَهُ مِن طَبَقَةِ ٱلفُحُولِ. وَقِيـلَ لِكُثَيِّرٍ كَيفَ تَصنَعُ ٱلشِّعرَ اِذَا عَسُرَ عَلَيكَ. قَالَ: اَطُوفُ فِي ٱلرِّيَاضِ ٱلمُعشِبَـةِ فَيَسهُلُ عَلَيَّ صَعبُـهُ وَيُسرِعُ اِلَيَّ

اَحسَنُهُ . وَقَالَ ٱلأَصمَعِيُّ : مَا ٱستُدعِيَ شَارِدُ ٱلشِّعرِ بِمِثلِ ٱلمَاءِ ٱلجَارِي وَٱلشَّرَفِ العَالِي وَٱلمَكَانِ ٱلخَالِي . وَقِيلَ ٱلخَالِي يَعنِي ٱلرَّوضَ

وَحَدَّثَنَا بَعضُ اَصحَابِنَا مِنْ اَهلِ ٱلمَهدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوضِعٍ بِهَا يُعْرَفُ بِٱلكَندِيَّةِ وَهُوَ اَشرَفُهَا اَرضًا وَهَوَاءً . قَالَ : جِئتُ هٰذَا ٱلمَوضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبدُ ٱلكَرِيمِ عَلَى سَطحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ ٱلدُّنيَا . فَقُلْتُ : اَبَا مُحَمَّدٍ . قَالَ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا . قَالَ : أُلقِحُ خَاطِرِي وَاَجلُو نَاظِرِي قُلْتُ : فَهَلْ نَتَجَ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا تَقَرُّ بِهِ عَينِي وَعَينُكَ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَاَنشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَّ ٱلقُلُوبِ رِقَّةً . قُلْتُ : هٰذَا ٱختِيَارٌ مِنْكَ ٱختَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلْ بِرَأْيِ ٱلأَصمَعِيِّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ اِذَا اَرَادَ اَنْ يُؤَيِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا لَيلًا يُشعِلُ سِرَاجًا وَيَعتَزِلُ اَهلَهُ وَرُبَّمَا عَلَا ٱلسَّطحَ وَحدَهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغبَةً فِي ٱلخَلوَةِ فِي نَفسِهِ . فَحُكِيَ اَنَّهُ صَنَعَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَخزَى بِهَا بَنِي نُمَيرٍ

وَرُوِيَ اَنَّ ٱلفَرَزدَقَ كَانَ اِذَا عَصَتْ عَلَيهِ صَنعَةُ ٱلشِّعرِ رَكِبَ نَاقَةً وَطَافَ وَحدَهُ مُنفَرِدًا فِي شِعَابِ ٱلجِبَالِ وَبُطُونِ ٱلأَودِيَةِ وَٱلأَمَاكِنِ ٱلخَالِيَةِ فَيُعطِيهِ ٱلكَلَامُ قِيَادَهُ . حُكِيَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلفَائِيَّةِ : عُرِفتَ بِأَعشَاشٍ وَمَا كِدتَ تَعرِفُ

وَذُكِرَ اَنَّ فَتًى مِنَ ٱلأَنصَارِ فَاخَرَ بِأَبيَاتِ حَسَّانَ بنَ ثَابِتٍ :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى

وَاَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَاَنظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ اَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : اَخَاكُمْ اَخَاكُمْ يَا بَنِي لَبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ اَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ اَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا اَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ ٱلْاَسْبَابِ تَخْتَلِفُ اَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ اَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَاَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ اَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا اَحْفَظُهُ وَلَا اَشُكُّ اَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَاِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْاَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي اَسْبَابِ ٱللَّهْوِ اَوِ ٱلْمَعِيشَةِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَاِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَاَنَّمَا نَشَاَتْ نَشَاَةً اُخْرَى وَلِاَنَّ ٱلسَّحَرَ اَلْطَفُ هَوَاءً وَاَرَقُّ نَسِيمًا وَاَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرَيَّضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرادَ ٱلحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيلُ. قَالَ ٱللهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلآنَ ٱلآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلبَيْتِ لِأَنَّ ٱلكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ

بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ أَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ

فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ الْأَعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذَلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ أَنْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَتَّةَ بَلْ أَصْنَعُ الْقَسِيمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْقَوَافِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِيَ أَفْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرَ ذَلِكَ يَبْخَلُ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيحِ الْمُفْرِطِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَبْيَاتٍ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَانْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً اَوْ رَابِعَةً اَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ اِلَّا اَنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ اَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا اَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ اَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَاَطَّرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّهُ لَا بُدَّ اَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ اِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ اَسْرَعُ وَاَخَفُّ عَلَيْهِ وَاَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَاَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ اِلَّا بَعْدَ اِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ اَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَاَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ وَاَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَاَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَاَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ: مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا اَرَادَتْ قُرَيْشُ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبِرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ. يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ. وَقِيلَ: مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ. وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا. وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَّامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَّامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِٱسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاخلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاخلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَةٍ مِنْ لَفظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَٱعْلَمْ انَّ ذٰلِكَ اجدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اخطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ انْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدَنِهِ وَإِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَإِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ الفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا انْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اجلِهِ اسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ انْ يُلْتَمَسَ إِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَإِنَّ اوَّلَ ٱلثَّلَاثِ انْ يَكُونَ لَفظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِانْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَضَعُ بِانْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَإِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَإِنْ امْكَنَكَ انْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَٱقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى انْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

ٱلخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلالفَاظَ ٱلمُتوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلطُفُ عَنِ ٱلدَّهماء وَلَا تَخفَى عَنِ ٱلاَكفَاء فَاَنتَ ٱلبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَاِنْ كَانَتِ ٱلمَنزِلَةُ ٱلأُولَى لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَعتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْدَ اوَّلِ نَظَرِكَ فِي اوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ اِلَى قَرَارِهَا وَاِلَى حَقِّهَا مِنْ اَمَاكِنِهَا ٱلمَقسُومَةِ لَهَا وَٱلقَافِيَةَ لَمْ تَحِلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ اوطَانِهَا فَاِنَّكَ اِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفْ ٱخْتِيَارَ ٱلكَلَامِ ٱلمَنثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ اَحَدٌ . فَاِنْ اَنتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ اَنتَ اَقَلُّ مِنْهُ عَيبًا وَرَاَى مَنْ هُوَ دُونَكَ اَنَّهُ فَوْقَكَ . فَاِنْ اَنتَ ٱبْتُلِيتَ بِاَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلاِجَابَةَ وَٱلمُوَاتَاةَ اِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ اَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ اِهْمَالٍ فَٱلمَنزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ

اِلَّا اَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلمَحَبَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ اَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلِٱنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلِٱمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَافْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَامْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَاِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعُ غِنًى قَوَّى ٱنْبِعَاثَهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَاِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَاِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلْعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلْمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلْأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلْقَوَافِي وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلْأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلْعِبَارَةِ إِلَى ٱلْمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلْجَلِيلِ وَإِعْ م طَاءُ ٱلْجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلْمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلْيَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ . ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱلْيَاءَ ٱلْمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي أَنْوَاعِ ٱلْأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ وَٱلْمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلْمَقَاطِعِ حَمِيدَةُ ٱلْمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلْمَقْطَعِ وَٱلْمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلْأَبْيَاتِ أَوِ ٱلْأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ: ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ. وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلِٱسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي. وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدُ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا. وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ. وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ» وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلِهِ «أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي» وَمِثْلُهُ

قَولُ ٱلقَطَامِيّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيمَةُ نَاصِبِ   وَلَيلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيلًا بِٱلجُمُومَيْنِ سَاهِرًا   وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًا وَظَاهِرًا

هٰذَا بَعضُ مَا ٱختِيرَ لِلقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱختِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَولُ أَوسِ ٱبنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفسُ أَجمِلِي جَزَعَا   إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱختِيرَ لِلمُحْدَثِينَ قَولُ بَشَّارِ بنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلجِزعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِندَهُمْ أَفضَلُ ٱبتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَولُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدَادُ طِيبَ نَسِيمِ   عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَولُهُ :

رَسْمُ ٱلكَرَى بَيْنَ ٱلجُفُونِ مُحِيلُ   عَفَّى عَلَيهِ بُكًا عَلَيكَ طَوِيلُ

وَقَولُهُ :

أَعطَتْكَ رَيحَانَهَا ٱلعُقَارُ   وَحَانَ مِنْ لَيلِنَا ٱنسِفَارُ

وَقَولُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَومِي فَإِنَّ ٱللَّومَ إِغرَاءُ   وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعقِيدِ فِي ٱلِٱبتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعبِلَ

ٱبنَ عليٍّ ٱلخُزاعيَّ وردَ حِمصَ فقصدَ دارَ عبدِ ٱلسَّلامِ بنِ رغبانَ ديكِ ٱلجنِّ فكتمَ نفسهُ عنهُ خوفًا من قوارصِهِ فقالَ : ما لهُ يستترُ وهو اشعرُ ٱلجنِّ وٱلإنسِ أليسَ ٱلقائلَ :

بها غيرُ معذولٍ فدا وخمارُها وهل بعشيَّاتِ ٱلغبوقِ ٱبتكارُها

فظهرَ اليهِ وٱعتذرَ اليهِ واحسنَ . ثمَّ تناشدا فانشدَ ديكُ ٱلجنِّ ٱبتداءَ قصيدةٍ :

كأنَّها ما كأنَّهُ خللُ ٱلخلَّةِ وقفُ ٱلهلوكِ أنْ بغمـا

فقالَ لهُ دِعبلٌ : ٱسكتْ فواللهِ ما ظننتُك تتمُّ ٱلبيتَ الَّا وقد غُشيَ عليكَ أو تشكَّيتَ دِماغَكَ وكأنَّكَ في جهنَّمَ تخاطبُ ٱلزَّبانيةَ أو تخبَّطكَ ٱلشَّيطانُ منَ ٱلمسِّ . وإنَّما أرادَ ٱلدِّيكُ أنْ يُهوِّلَ عليهِ ويقرعَ سمعهُ عسى أنْ يُزعِجَهُ أو يروعهُ فسمعَ منهُ ما كرهَ . ولعمري ما ظلمهُ دِعبلٌ ولقدْ ابعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ من جهاتٍ منها إضمارُ ما لم يُذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلِهِ فيعذرَ ولا كثُرَ ٱستعمالُهُ فيشهرَ مع إحالةِ ٱلتَّشبيهِ على تشبيهٍ ثقُلَ تجانسُهُ ٱلَّذي هو حشوٌ فارغٌ لو طُرِحَ منَ ٱلبيتِ كانَ احزمَ وٱستدعى قافيةً لا لشيءٍ الَّا لفسادِ ٱلمعنى وٱستحالةِ ٱلتَّشبيهِ ما ٱلَّذي يُريدُ ببغامِهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهو ٱلسِّوارُ ولِمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصَّةً . ومثلُهُ قولُ محمَّدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزَّيَّاتِ يصفُ ناقتَهُ في أوَّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ :

كأنَّها حينَ تناءَى خطوُها أجشُّ موشيُّ ٱلشَّوى يرعى ٱلقُلَلْ

فَالْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ ٱلْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ اَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ ٱلشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُمْ يَصِفُونَ ٱلنَّاقَةَ بِٱلظَّلِيمِ وَٱلْحِمَارِ وَٱلثَّوْرِ بَعْدَ ٱلْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي ٱلْوَصْفِ. هٰذَا هُوَ ٱلْجَيِّدُ فَاِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا اَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَٱسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَعُونَ ٱلتَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ ٱلزِّيَادَةِ. ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى ٱلْقُلَلَ » وَٱلثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ ٱلْجِبَالِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ ٱلْوَعِلُ لِاَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَٱلثَّوْرُ فِي ٱلسُّهُولِ وَمَوَاضِعِ ٱلرِّمَالِ اِلَّا اَنْ يُرِيدَ بِٱلنَّبَاتِ اَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا اَنْ يَكُونَ ٱلْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ اَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلْاَوَّلِ اِذَا ٱبْتَدَأَ شِعْرًا وَاَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّسِيبِ كَاَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ   اَغِذَاءُ ذَا ٱلرَّشَاِ ٱلْاَغَنِّ ٱلشِّيحُ

فَهٰذَا ٱعْتِذَارُ مَنِ ٱعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي ٱلرِّثَاءِ وَٱلتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ اَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْعَظَائِمِ مِنَ ٱلْاُمُورِ وَٱلنَّوَازِلِ ٱلشَّدِيدَةِ. وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ اَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَاِنَّ اَبَا تَمَّامٍ ٱمْتَدَحَ اَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَٱفْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ اَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ خُنْسَةٌ شَدِيدَةٌ. فَقَالَ ٱلرَّجُلُ لَعَنَهُ ٱللّٰهُ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلنَّاسُ اَجْمَعُونَ.

فَدَهِشَ أبو تمّام حتّى تبيّنَ ذلكَ عليهِ على أنهُ غيرُ مأخوذٍ بما قيلَ ولا هو ممّا يُدخِلُ عليهِ عيباً. ولا يلزمهُ على الحقيقةِ إلّا انَّ الحوطةَ والتحفّظَ من الحجّةِ الباردةِ أفضلُ والتفريطَ أرذلُ وأخبثُ.

ودخلَ جريرٌ على عبدِ الملكِ بنِ مروانَ وأنشدهُ «أتصحو أم فؤادكَ غيرُ صاحي» فقالَ لهُ عبدُ الملكِ: بلْ فؤادكَ يا ابنَ الفاعلةِ كأنّهُ يستثقلُ هذهِ المواجهةَ وإلّا فقدْ علمَ انَّ الشاعرَ إنّما خاطبَ نفسهُ ومنْ هذهِ الجهةِ بعينِها عابوا على أبي الطيّبِ قولهُ لكافورٍ أوّلَ لقائهِ مبتدئاً وإنْ كانَ إنّما يُخاطبُ نفسهُ لا كافوراً:

كفى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافيا

وحسبُ المنايا أنْ يكنَّ أمانيا

فالعيبُ منْ بابِ التأدّبِ وحُسنِ السياسةِ لازمٌ لأبي الطيّبِ في هذا الابتداءِ لاسيّما وهذا النوعُ أعني جودةَ الابتداءِ منْ أجلِّ محاسنِ أبي الطيّبِ وأشرفِ مآثرِ شعرهِ إذا ذُكرَ الشعرُ.

ودخلَ ذو الرُّمّةِ على عبدِ الملكِ بنِ مروانَ فاستنشدهُ شيئاً منْ شعرهِ فأنشدهُ «ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ» وكانَ بعينِ عبدِ الملكِ ريشةٌ فهيَ تدمعُ فتوهّمَ أنّهُ خاطبهُ أوْ عرّضَ بهِ فقالَ: وما سؤالكَ يا جاهلُ عنْ هذا ومقتهُ وأمرَ بإخراجهِ وكذلكَ فعلَ ابنهُ هشامٌ بأبي النجمِ وقدْ أنشدهُ في أُرجوزةٍ:

صفواءُ قدْ كادتْ ولمّا تفعلِ   فكأنّها في الأُفقِ عينُ الأحولِ

وكانَ هشامٌ أحولَ فأمرَ فحُجبَ عنهُ مدّةً وقدْ كانَ قبلَ

ذٰلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ أَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِأَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدٌ لِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: إِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ أُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَأُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: أَتَعْرِفُ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ اكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ ابَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ :

يَا امِينَ ٱللهِ عِشْ ابَدًا　　دُمْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
انْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا　　فَاِذَا افْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَاِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ فَانَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي اسَاءَ فِيهِ ادَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ انَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ ابُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ اوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اوَّلُهَا :

ارَبْعَ ٱلْبِلَى اِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ　　عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ　　بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا انْفُسَنَا يَا ابَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ انَّ ابَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا أَشُكُّ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱللَّهْوِ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلْإِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْإِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَأُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَأَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُئُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ إِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَأَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَمحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱستَعْمَلَهُ ٱلمُوَلَّدُونَ ٱلمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱستَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُم يَرْضَى بِٱلكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلبَرِيدِ وَٱلفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلإِبِلِ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ

عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ

بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرْبَرَا

إِذَا رُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا

مَشَى ٱلهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلخَيْلُ ٱلبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَٱلبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا اَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ اَنَّهُ قَصَدَ ٱلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا اِما اِخْبَارًا بِٱلصِّدْقِ وَاِمَّا تَعَاطِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ اَبُو نُوَاسٍ لِلفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيْكَ اَبَا ٱلعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ خَبِيثًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيقِ وَلَا ٱلْهَنَا

فَذَكَرَ اَنَّ قَلَائِصَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَطَوْا اِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِٱلنِّعَالِ وَاَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ ٱللُّغْزِ وَٱتَّبَعَهُ اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ ٱلرَّدِيفَ وَلَا بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ اَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَٱلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً اُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ اَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اَبُو ٱلطَّيِّبِ لٰكِنْ اَرَادَ اَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ اَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحَضْرَمِيُّ مِنَ ٱلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ ٱلْمُسَافِرُ دُونَ ٱلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ ٱلْكَلَامِ اَنَّ مَقْصِدَ ٱلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى الْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّهَيُّبِ بِذِكْرِ الْخَيْلِ وَتَعَاطِي الشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ

وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَي أَغَرَّ كَأَنَّهُ
مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَالْوَاجِبُ اجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ الْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ النَّاقَةِ وَالْفَلَاةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْوَثْبُ وَالْبَتْرُ وَالْقَطْعُ وَالْكَسْعُ وَالِاقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَالْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ بَتْرَاءُ كَالْخُطْبَةِ الْبَتْرَاءِ وَالْقَطْعَاءِ وَهِيَ الَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ اللّٰهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا النَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا الْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا الْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلُهُ عِنْدَ الْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ابْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ :

اَعِزْ شِعْرَكَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصَفَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مَنْ خَدَمَ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلْاِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلْاِبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِي ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَلَ بِجُودَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلْاِبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا اِبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لَاَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جوزًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فخم الابتداء لَهُ رَوْعَةٌ وعَلَيْهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ:

اَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا:

اَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةُ الِابْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ابْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ :

عَارَضْنَنَا أُصُلًا فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالِاسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عُبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ :

سُقِيَتْ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا
وَلَوَ انَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرٰهِيمَا

وَاَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلْفَنِّ اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَاِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَانْظُرِي اَوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَاَلَا
عَلَّ ٱلْاَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
اِلَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى اَنْ يَكُونَ ٱلْاَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

سَاَشْكُو اِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ ... هَوَانَا لَعَلَّ ٱلْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِاَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اَتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّحَابَةِ فَقَالَ:

اَمِيرٌ رَاَيْتُ ٱلْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ... ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَاَنَّهُ اَشَارَ اِلَى اَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اَتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلْقِيَادَةِ فَقَالَ:

اَيْقَنْتُ اَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي ... لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى اَنَّهُ يَشْفَعُ فَاِنْ اُجِيبَ اِلَى مُسَاعَدَةِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَاِلَّا رَجَعَ اِلَى ٱلْقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ اَبِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

اُحِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاَشْكُو اِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَلَفْظَةُ ٱلشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ

وَاَوْلَى ٱلشِّعْرِ بِاَنْ يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَنْ مَعْنًى اِلَى مَعْنًى ثُمَّ عَادَ اِلَى ٱلْاَوَّلِ وَاَخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ اِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ ٱعْتَذَرَ بِهَا اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا
عَلَى ٱلنَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلْتُ اَلَمَّا اَصْحُ وَٱلشَّيْبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ اِلَى ٱلِاعْتِذَارِ فَقَالَ :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ ٱلْاَصَابِعُ
وَعِيدُ اَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ اَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذٰلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَاَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقْشِ فِي اَنْيَابِهَا ٱلسَّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلْحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

اَتَانِي اَبَيْتَ ٱللَّعْنَ اَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ ٱلَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا ٱلْمَسَامِعُ

ثُمَّ اَطَّرَدَ لَهُ ٱلْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ اِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى ٱنْقَضَتِ ٱلْقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اَشَرْتُ اِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَقَدْ

يَقَعُ مِنْ هٰـذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ يَمْدَحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى

مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ

نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰـذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيـلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِـلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

إِنَّ ٱلرَّعِيَّـةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ اِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَامَّا ٱلِانْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ اَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ اَحْسَنُ مِنْهُ . وَاِذَا كَانَ اَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ اَرْبَى اَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْاَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَّا اَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ اَوَائِلَ ٱلْاَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَاِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ اَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ اَشْجَاهُ طَاسِمُهْ ... بِاَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ اَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَاِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْاَصْمَعِيُّ اِلَى اَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ اَوْلَى بِهِ وَاَشْعَرَ لَهُ وَاِنَّمَا اَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْاِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

اُحِبُّكَ اَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ... ثَبِيرًا وَٱبْنُ اِبْرٰهِيمَ رَيْعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ . وَمَا اَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ اِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ اَوْرَدَهَا اَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ اَنَّهُ قَالَ : رَاَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَاِنْ عَلِمْنَا ٱلْاِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ اَيْضًا :

اَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ   عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

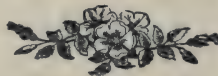
يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً   بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفَاءِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ   وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

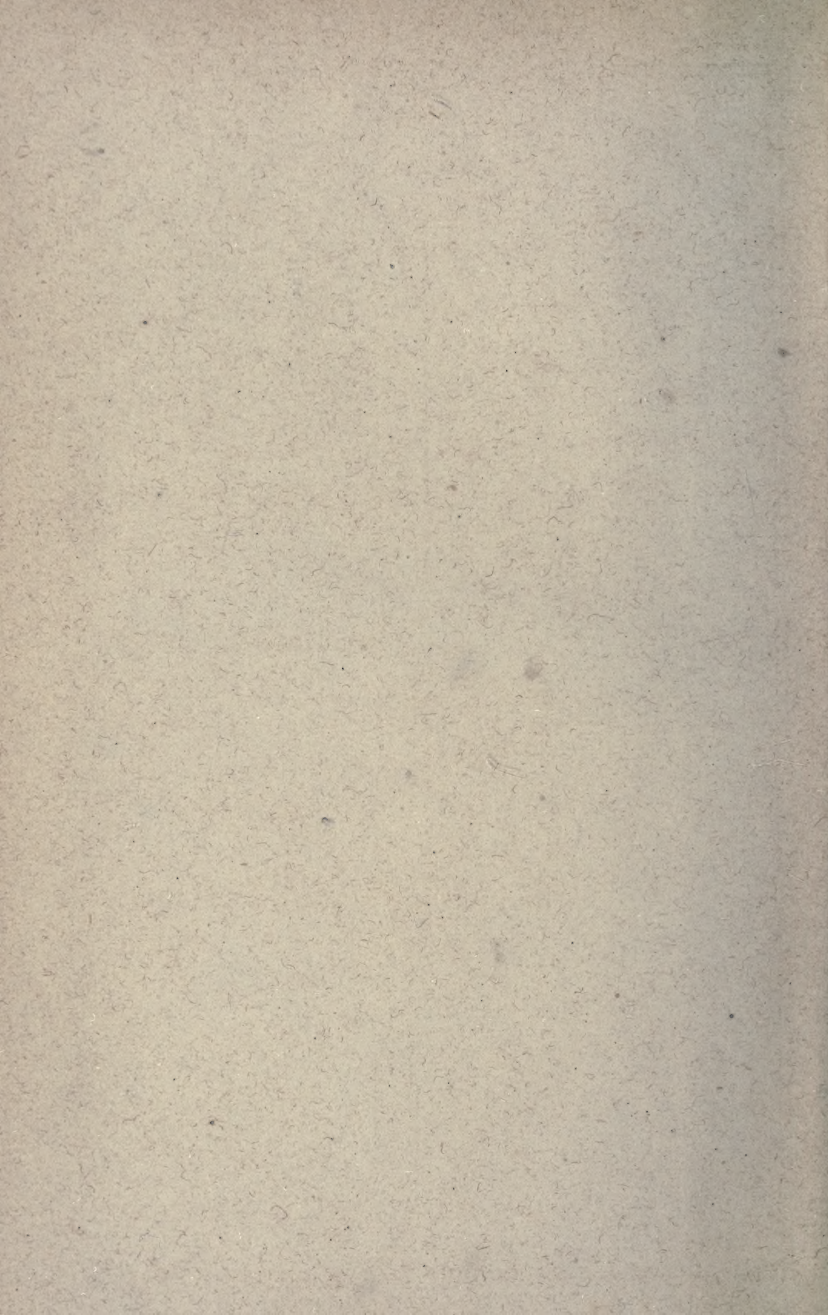
فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ.



فهرس

المقالات









بعض كتب المطبعة الكاثوليكية

كتب مدرسية عربية

القواعد الجلية في علم العربية تأليف الاب جبرائيل اده اليسوعي طبعة جديدة مصححة مع حواشٍ وهو جزءان

بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات مع حواشٍ عليهِ لمصححهِ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني

مرقاة الطلاب في مبادي علم الحساب

مسائل مقتطفة في علم الحساب

جداول الافعال

الالفاظ الكتابية لعبد الرحمان الهمذاني اعتنى بضبطهِ وتهذيبهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كلية القديس يوسف

الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب انشأهُ المعلّم سعيد الخوري الشرتوني معلم اللغة وآداب الانشاء في كلية القديس يوسف اقترحهُ عليهِ احد الاباء اليسوعيين

لطائف الاقوال في امثالٍ وقصصٍ مقتطفة افادةً للمدارس للاب بوناونتورا جيرودو اليسوعي

دفاتر لتعليم الخط العربي على طريقة مستحدثة

معرض الخطوط العربية وضع لتمرين احداث المدارس على قراءة ما ورد لهم من اصناف الكتابات ومطالعة عويص الخطوط ومستغلق الرسالات

هدية الاحباب في علم الحساب تأليف ميخائيل اصاف اللبناني

مائة حكاية تأليف كريستوفوروس شميد معربة بقلم ميخائيل بن فرنسيس المسابكي

مجاني الادب في حدائق العرب جمع احد الاباء اليسوعيين مدرس البيان في كلية القديس يوسف سبعة اجزاء

مرقاة المجاني لجامع مجاني الادب جزءان

مختصر الجغرافية تأليف جديد للاب كسافاريوس ابوجي اليسوعي

ديوان ابي العتاهية اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين

مختصر في الصرف لشرح جدول الافعال تأليف احد الاباء اليسوعيين

تمارين على كتاب القواعد الجليّة في علم العربيّة تأليف المعلّم رشيد الشرتوني

فقه اللغة لابي منصور الثعالبي اعتنى بجمعهِ وضبطهِ احد الاباء اليسوعيين مدرّس البيان في كليّة القديس يوسف